التعليق الجلي
على وصية الإمام الحافظ
موفق الدين ابن قُدامة المقدسي
رَحِمَهُ ٱللَّهُ

كتبه

أ.د. بندر بن نافع بن بركات العبدلي

@dr_abdalib

الطبعة الأولى

١٤٤١هـ / ٢٠٢٠م

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

الحمد لله وحده وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

أما بعد:

فقد وقفت على وصية نافعة جامعة للحافظ الإمام ابن قدامة صاحب المغني رَحِمَهُ ٱللَّهُ فألفيتها قيمة اشتملت على رسائل إيمانية وتربوية وتوجيهات سديدة انبعثت من قلب محب مشفق عالم ناصح.

فرأيت التعليق عليها بما يوضِّح معانيها ويجلي غامضها ويزيدها جمالاً إلى جمالها بذكر بعض الأدلة والشواهد مع وضوحها وعدم غموضها.

والله أسأل أن ينفع به كما نفع بأصله، وأن يجزي الحافظ الإمام خيراً على وصيته وأن يرفع درجته وأن يجعل ما قدم في موازين حسناته إنه جواد كريم.

والله الموفق

كتبه

بندر العبدلي

عنيزة

١٤٤١/١٠/٣هـ

***

ترجمة مختصرة للمؤلف

هو الحافظ أبو محمد عبدالله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي الجماعيلي الدمشقي الموفق الحنبلي صاحب «المغني».

ولد سنة (٥٤١ هـ) بجماعيل.

وصفه الذهبي بقوله: «الشيخ الإمام القدوة العلاَّمة المجتهد شيخ الإسلام»[(١)].

ونقل ابن رجب عن سبط ابن الجوزي قوله: «كان إماماً في الفنون، ولم يكن في زمانه - بعد أخيه أبي عمرو العماد - أزهد ولا أروع منه، وكان كثير الحياء، عزوفاً عن الدنيا وأهلها هيناً ليناً متواضعاً، محباً للمساكين حسن الأخلاق، جواداً سخياً، من رآه كأنه رأى بعض الصحابة، وكأنما النور يخرج من وجهه، كثير العبادة، يقرأ كل يوم وليلة سُبعاً من القرآن، ولا يصلي ركعتي السنة في الغالب إلا في بيته، اتباعاً للسنة»[(٢)].

وثناء العلماء عليه وبيان فضله ومكانته في العلم كثير جداً.

وقد صنف بعضهم مجلداً في بيان مآثره ومناقبه ...

مات سنة (٦٢٠ هـ) السبت يوم عيد الفطر

رحمه الله رحمة واسعة وأجزل مثوبته.

❊❊❊

(١) «سير أعلام النبلاء» (٢٢/ ١٦٥).

(٢) «ذيل طبقات الحنابلة» (٢/ ١٣٣).

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ذي الوجهِ الكريم، والفضل العظيم، والمَنِّ القديم.

وصلى الله على سيدنا محمدٍ خاتم النبيِّين وآله أجمعين.

أما بعد:

فقد سألني بعضُ إخواني الصالحين أن أكتبَ له وصيَّةً، فامتنعتُ من ذلك، لعلمي أني غير مُسْتَوصٍ في نفسي، ولا عاملٍ بما ينبغي!

ثم بدا لي أن أُجيبه إلى مسألتِهِ، رجاءَ ثوابِ قضاءِ حاجةِ الأخ المسلم، ودعائِهِ لي، وأنْ يُجري لي أجراً إذا عَمِلَ بوصيتي، وأنْ أكونَ من الدالِّين على الخير حين عجزت عن عمله، لأكون بدلالتي عليهِ كفاعِلِه؛ والأعمالُ بالنيَّاتِ، وما توفيقي إلا باللهِ عليه توكلتُ وإليهِ أُنيبُ.

التعليق:

بدأ المؤلف وصيته بحمد الله عَزَّوَجَلَّ والثناء عليه بأسمائه الحسنى وصفاته العليا. ثم ثنى بالصلاة على نبيه محمد عليه أفضل الصلاة والسلام وأنه خاتم النبيين . وعلى آله وهم: أهل بيته، وأصحابه وجميع أتباعه.

ثم أشار إلى سبب كتابة هذه الوصية وهو سؤال أحد إخوانه الصالحين له بكتابتها. وأنه امتنع أولاً عن ذلك ثم أجابه إليه.

■ **وبين أن إجابته لأربعة أسباب:**

📖 **١) «رجاء ثواب قضاء حاجة الأخ السائل».**

لأن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته». متفق عليه[١].

وهذا يشمل قضاء حاجة الأخ المسلم سواء كانت حسية أو معنوية.

ومعنى: «كان في حاجة أخيه» أي: يقضيها ويساعده عليها.

ومن ذلك إجابة طلبه في قضاء حاجته بالكتابة له أو الشفاعة أو ما أشبه ذلك.

📖 **٢) «دعائه لي».**

لأن دعاء الأخ لأخيه مكسب، وهو عمل صالح يستفيد منه الداعي والمدعو له.

قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «من دعا لأخيه بظهر الغيب قال الملك الموكّل به: آمين، ولك بمثلٍ» رواه مسلم[٢].

📖 **٣) «وأن يجري لي أجراً إذا عمل بوصيتي».**

لأنه دله على الخير وأرشده إليه فيكتب له مثل أجره.

قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص من أجورهم شيئًا ...» الحديث. رواه مسلم[٣]

---

(١) «صحيح البخاري» (٦٩٥١)، ومسلم (٢٥٨٠) . من حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) برقم (٢٧٣٢).

(٣) برقم (٢٦٧٤).

٤) «وأن أكون من الدالّين على الخير حين عجزتُ عن عمله، لأكون بدلالتي عليه كفاعله، والأعمال بالنيات».

لقول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من دلّ على خير فله مثل أجر فاعله». رواه مسلم[1].

وإذا عمل هذا الأخ بوصية الشيخ فإن للشيخ مثل أجره لأنه دله على الخير.

وفي هذا إشارة إلى أنه ينبغي للإنسان أن يرشد الغير إلى الخير ويحثهم عليه ليكون له مثل أجورهم إذا عجز هو عن فعله معهم .بل إن له أجر الدلالة على الخير ولو عمله أيضاً لعموم الحديث.

ثم ختم هذه المقدمة بالتوكل على الله، والإنابة إليه، فالعبد قوي بربه ضعيف بنفسه.

ربنا هو حسبنا عليه توكلنا وإليه أنبنا وإليه المصير.

❊❊❊

(١) برقم (١٨٩٣).

الفصل الأول

المبادرة إلى العمل

قال المصنف:

«فأقول، وحسبنا اللهُ ونعمَ الوكيل:

اعلمْ رحمكَ اللهُ، أنَّ هذه الدنيا مزرعةُ الآخرةِ، ومَتْجَرُ أرباحِها، ومَوْضِعُ تحصيل الزادِ منها، والبضائعِ الرابحةِ. بها برزَ السابقونَ، وفازَ المتَّقونَ، وأفلحَ الصادقونَ، ورَبَحَ العاملون، وخَسِرَ المبطلون».

التعليق:

بدأ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ببيان حقيقة الدنيا وأنها مزرعة للآخرة، فمن عمل فيها عملاً صالحًا حصد الأجر والخير والثواب، ومن عمل سوى ذلك حصد الشر والعقاب.

وأنها متجر أرباحها أي: مكسب ومغنم للأرباح.

وموضع تحصيل الزاد منها والبضائع الرابحة: يعني لمن عمل صالحًا فإنه يحصد الثواب والأجر وهو البضاعة الرابحة.

بها برز السابقون: أي ظهر وبان السابقون بالخيرات وهم من فعلوا الواجبات وزادوا عليها فعل النوافل والمستحبات.

وفاز المتقون، وأفلح الصادقون. وربح العاملون. لأنهم استجابوا لربهم امتثالاً للمأمور واجتنابًا للمحظور ففازوا وأفلحوا.

وهذه الأوصاف قد تكون لموصوف واحد. فالمتقون صادقون عاملون رابحون.

وخسر المبطلون: أي الكافرون، خسروا أنفسهم وأهليهم بردهم الحق وأخذهم الباطل.

قال: «وأن هذه الدارَ أمنيةُ أهلِ الجنَّةِ، وأهلِ النارِ!

قال اللهُ تعالى في أهلِ النار: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾[١].

وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾[٢].

وقال ابنُ مسعودٍ فيما يرويهِ: إن أرواحَ الشهداءِ كطيرٍ خُضْرٍ تَسْرَحُ في الجنةِ حيثُ شاءتْ، ثم تأوي إلى قناديلَ مُعَلَّقَةٍ بالعرشِ، فبينما هم كذلكَ اطَّلَعَ عليهم ربُّكَ اطِّلاعةً فقال: يا عبادي سَلوني ما شِئْتُمْ. فقالوا: يا ربَّنا نسألُكَ أنْ تَرُدّ أرواحَنا في أجسادِنا، ثم تَرُدَّنا إلى الدنيا فنُقْتَلَ فيكَ مَرَّةً أخرى.

فلمّا رأى أنَّهم لا يَسألونَ إلا ذلك تُركوا![٣]»

التعليق:

أشار المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى أن هذه الدنيا يتمنى الرجوع إليها أهل الجنة وأهل النار.

أهل الجنة – ومنهم الشهداء يتمنون الرجوع إلى الدنيا ليُقتلوا في سبيل الله ثم يعودوا – لما يروا من عظيم الأجر والثواب والنعيم المقيم.

---

(١) [سورة فاطر: آية ٣٧].

(٢) [سورة الأنعام: آية ٢٧].

(٣) أخرجه مسلم (١٨٨٧) وفيه أن مسروقاً قال: سألنا عبدالله عن هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران: ١٦٩]، قال: أما إنا قد سألنا عن ذلك فقال: فذكره ...

وأهل النار يتمنون الرجوع إلى الدنيا ليعملوا صالحًا فينجوا به من العذاب.

في الآية الأولى ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ﴾[١] اعترفوا بذنبهم، وعرفوا أن الله عدل فيهم، ولكن سألوا الرجعة في غير وقتها[٢].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فذكر تعالى أنهم يسألون الرجعة فلا يجابون عند الاحتضار، ويوم النشور، ووقت العرض على الجبّار، وحين يعرضون على النار، وهم في غمرات عذاب الجحيم»[٣].

وفي الآية الثانية: بيان حال المشركين يوم القيامة وإحضارهم النار يتمنون أن لو ردوا إلى الدنيا فيؤمنون ويصدقون وهم كاذبون في ذلك وإنما مقصدهم أن يدفعوا بها عن أنفسهم العذاب، ولهذا قال عَزَّوَجَلَّ ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ٢٨﴾[٤].

وفي الحديث من الفوائد: عِظم نعيم الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله . وأنهم في نعيم لا يوصف، ومن شدة فرحهم بهذا النعيم يتمنون الرجوع إلى الدنيا ليقتلوا في سبيل الله عدة مرات.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اعلم يا أخي - رحمَك الله - أنَّ اللهَ تعالى قد عَلِمَ أنَّهم يَسألونَ ذلك، وأنَّهم لا يُرَدُّون إلى الدنيا، وإنما أرادَ إعلامَ المؤمنين الذين في الدنيا أن أمنيتهم في الجنَّةِ القتلُ في سبيلِهِ؛ ليرَغِّبَهُم في ذلك».

---

(١) [سورة فاطر: آية ٣٧].

(٢) «تفسير ابن سعدي» ص (٦٩٠).

(٣) «تفسيره» (٥/ ٤٩٣).

(٤) [سورة الأنعام: آية ٢٨].

التعليق:

هذه تتمة لما سبق.

وأن الله عَزَّوَجَلَّ قد علم من أولئك أنهم يسألون الرجوع إلى الدنيا ومع ذلك لا يُرَدُّون، ولا يُجابون.

وكذلك الشهداء ذكر أنهم يتمنون الرجوع إلى الدنيا ليقتلوا في سبيل الله لما يروا من النعيم والكرامة ...

ذكر ذلك عنهم ليرغّب المؤمنين في مثل هذا العمل الجليل وهو الجهاد في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ ..

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقال إبراهيمُ التَّيْمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: مثّلتُ نفسي في الجنَّةِ آكلُ من ثمارِها، وأُعانقُ أبكارَها، وأتمتَّع بِنعيمِها، فقلتُ لنفسي: أيُّ شيءٍ تَتَمنَّيْن؟ فقالتْ: أُرَدُّ إلى الدّنيا فأزدادُ من العملِ الذي نِلتُ به هذا . ثمّ مثَّلْتُ نَفْسي في النَّارِ أُحْرقُ بِجَحيمِها، وأَجْرعُ من حَمِيمِها، وأطْعمُ من زقُّومِها، فقلتُ لنفسي: أيَّ شيءٍ تتمنينَ؟ فقالت: أُرَدُّ إلى الدّنيا فاعملُ عملًا أتخلَّصُ به من هذا . فقلتُ لنفسي: يا نفسُ فأنتِ في الأمنيةِ فاعملي!».

وكان بعضُ السَّلفِ قد حفر لنفسهِ قبراً، فإذا فَتَرَ من العملِ نزلَ في قبرهِ، فتمدَّدَ في لحْدِه ثم قال: يا نفسي، قدّري أنكِ قد متّ وصرتِ في لحدكِ، أيَّ شيءٍ كنتِ تتمنَّيْن؟ قالت: أُرَدُّ إلى الدنيا فأعملُ فيها صالحًا . فيقولُ لها: قد بلغتِ أمنيتكِ، فقومي فاعملي صالحًا !

التعليق:

أثر ابراهيم النخعي أخرجه: أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ٢١١) وابن أبي الدنيا في «محاسبة النفس» (١٠) بإسناد صحيح.

وفيه دليل على زهد هذا الإمام، وحرصه على محاسبة نفسه بما ذكر وهو أنه مثل نفسه في الجنة يأكل من ثمارها ويتمتع بنعيمها فقال لنفسه: أي شيء تتمنين؟ قالت: أُرد إلى الدنيا لأزداد عملاً صالحاً لما رأت من النعيم المقيم والفضل العظيم.

ثم مثَّل نفسه في النار يُحرق بجحيمها ويتجَّرع آلامها وسمومها - والعياذ بالله - فقال لنفسه: أي شيء تتمنين؟ فقالت: أُرد إلى الدنيا فأعمل عملاً صالحاً أتخلص به من هذا العذاب.

فقال لنفسه: يا نفس فأنت في الأمنية فاعملي ...

ولو مثَّل كل واحد منا نفسه بذلك لاستقامت أحواله وصلحت أعماله .. لكن تغلب علينا الغفلة والنسيان والانشغال بالدنيا وملذاتها.

نسأل الله أن يحيي قلوبنا بطاعته وأن يرزقنا الاتعاظ والاعتبار إنه جواد كريم.

وما ذَكر عن بعض السلف وأنه كان يحفر قبره، فيه نظر حيث لم يفعله النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا صحابته الكرام. ولو كان خيراً لسبقونا إليه وحرصوا عليه.

وعليه فيقال: إنه لا يشرع للإنسان أن يحفر قبره ولا أن يجهِّز كفنه. بل يعتبر ويتعظ بالآيات الشرعية والكونية فهي التي تحيي قلبه وتذكّره . والله أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «واعلم رحمك الله، أن أهل القبور أمنيةُ أحدِهم أن يُسَبِّح تسبيحةً تزيدُ في حسناتِهِ، أو يقدرَ على توبةٍ من بعضِ سيئاتِهِ، أو ركعةٍ ترفعُ في درجاتِهِ.

وقد رَوَيْنا أن رجلاً ركعَ ركعتين إلى جانبِ قبرٍ، ثم اتَّكأَ عليهِ، فأغفى، فرأى صاحب القبر في المنام يقول: تنحَّ عني فقد آذيتني؛ واللهِ إنَّ هاتينِ الركعتينِ اللتينِ ركعتَهما لو كانتا لي كانتا أحبَّ إليَّ من الدنيا وما فيها؛ إنكم تعملونَ ولا تعلمونَ، ونحنُ نعلمُ ولا نعملُ!

فاغتنمْ رحمكَ اللهُ حياتَكَ النفيسةَ، واحتفظْ بأوقاتِكَ العزيزةِ.

التعليق:

ذكر المصنف أمنية أهل القبور، وهو صحيح وقد ذكره غير واحد من المفسرين: أن الواحد منهم يتمنى حسنة واحدة تزيد في حسناته أو ركعة ترفع في درجاته، أو يقدر على توبة من بعض سيئاته.

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «غاية أمنية الموتى في قبورهم حياة ساعة يستدركون فيها ما فاتهم من توبة وعمل صالح، وأهل الدنيا يفرطون في حياتهم فتذهب أعمارهم في الغفلة ضياعـًا، ومنهم من يقطعها بالمعاصي»[(١)].

والأثر الذي ذكره فيه دليل على أن أهل القبور يتمنون العمل الصالح ولو قل، وفيه عظة وعبرة.

وما وقع فيه فهو اجتهاد من فاعله ولا يوافق عليه.

---

(١) «لطائف المعارف» ص (٣٣٩).

من ذلك اتكاؤه على القبر وهو محرم[(١)] لحديث عمرو بن حزم قال: رآني رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأنا متكئ على قبر فقال: «لا تؤذ صاحب القبر»[(٢)].

ومن ذلك صلاته ركعتين بجانب القبر.

وعليه فيقال: يحتمل أنه لم يكن في المقبرة وإنما كان قبراً منفرداً.

ويحتمل: أنه كان في المقبرة، لكن هذا القبر كان بجواره، وليس في قبلته.

وأيـًا كان فإن الصلاة في المقبرة منهيٌ عنها، ويستثنى من ذلك صلاة الجنازة على الميت لمن لم يصل عليه في المسجد، وكذا الصلاة على القبر لثبوت ذلك عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ويبقى هذا الفعل اجتهادٌ ممن فعله عفا الله عنا وعنه.

📖 **قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «واعلم أن مدَّةَ حياتِكَ محدودة، وأنفاسَكَ معدودةٌ، فكلُّ نَفَسٍ يَنْقُص به جزءٌ منكَ، والعمرُ كلُّه قصيرٌ، والباقي منه هو اليسيرُ.**

وكلُّ جزءٍ منه جوهرةٌ نفيسةٌ لا عِدَلَ لها ولا خَلَفَ منها. فإنَّ بهذه الحياةِ اليسيرةِ خلودَ الأبدِ في النعيم، أو العذابَ الأليمَ.

وإذا عادلتَ هذه الحياةَ بخلودِ الأبدِ؛ علمتَ أن كلَّ نَفَس يَعْدِلُ أكثرَ من ألفِ ألفِ ألفِ عام في نعيمٍ لا حصرَ له، أو خلافِ ذلك. وما كان هكذا فلا قيمةَ له.

فلا تضيِّعْ جواهرَ عمرِكَ النفيسةَ بغيرِ عملٍ، ولا تُذْهِبْها بغيرِ عِوَضٍ، واجتهدْ

---

(١) انظر: «شرح صحيح مسلم» (٧/ ٢٧)، «الإنصاف» (٣/ ٣٨٦).

(٢) أخرجه أحمد (٢٤٠٠٩). وصححه الذهبي في «تنقيح التحقيق» (١/ ٣٢٠) وابن حجر في «فتح الباري» (٣/ ٢٦٦).

أن لا يخلوَ نَفَسٌ من أنفاسِكَ إلا في عملِ طاعةٍ، أو قُرْبةٍ تتقرَّبُ بها، فإنَّكَ لو كانتْ معكَ جوهرةٌ من جواهرِ الدنيا فضاعتْ منك؛ لحزنتَ عليها حزنًا شديداً، بل لو ضاعَ منك دينارٌ لساءكَ، فكيف تفرِّطُ في ساعاتك وأوقاتِكَ؟ وكيفَ لا تحزَنُ على عمرِكَ الذاهبِ بغيرِ عِوَضٍ؟!

التعليق:

ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الأيام محدودة والأنفاس معدودة، وهو كذلك. لأن مدة بقاء الإنسان في الدنيا معدودة لقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾[٣].

وقال: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾[٤].

وقوله: «وكل جزء منه جوهرة نفيسة لا عد لها ولا خلف منها».

هذا حق؛ وذلك لأن العمر إذا استُغل في طاعة وعُمّر في عبادة زاد الإنسان به حسنات وارتفعت له الدرجات . فهو جوهرة متى ما عمرت بالطاعة والعبادة . ولهذا قال: «فلا تضيعّ جواهر عمرك النفيسة بغير عمل ..»

وقوله: «واجتهد أن لا يخلو نَفَس من أنفاسك إلا في عمل طاعةٍ، أو قربة تتقرب بها».

■ هذا يعني أن الإنسان ينبغي له:

- أن يجاهد نفسه وأن يستغل أوقاته.
- أن يراقب ربه في عمره وأن يعلم أنه محاسب ومعاقب على تفريطه.

---

(٣) [سورة الأنبياء: آية ٣٥].

(٤) [سورة الأعراف: آية ٣٤].

- أن يتذكَّر الثواب والأجر والنعيم المقيم فيسعى جاهداً لإدراكه وأن يكون من أهل النعيم.
- أن ينظر في سير السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ وحرصهم على أوقاتهم وعمارتهم لها.
- أن يكثر من الدعاء بأن يحفظ الله له وقته وأن يعينه على استغلاله .

فبهذه الأمور يحافظ الانسان على أوقاته وأنفاسه.

نسأل الله أن يعيننا على ذلك.

📖 قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وإنني خطرَ لي أنْ أُمثِّلَ هذه الدنيا وأهلَها كمثلِ أهلِ سفينةٍ ألقتهمُ الريحُ إلى جزيرةٍ في البحرِ فيها معادنُ الجواهرِ كلِّها، من الياقوتِ والزُّمُرُّدِ والزَّبَرْجَدِ واللؤلؤ والمَرْجان والدُّرِّ، وما دونَ ذلك إلى العقيقِ والشِّيح، ثم بعد ذلك زَلَف وحجارةٌ لا قيمةَ لها، وفيها أنهارٌ وبساتينُ، وفي الجزيرة حِمَى المَلِك، قد حَدَّ له حدوداً، وأحاطَ عليه حائطًا فيه خزائنُ المَلِكِ، وإماءٌ، ووِلْدانٌ.

فنزلَ أهلُ السفينةِ في الجزيرةِ، وقيلَ لهم: إن مقامَكمْ بها يومٌ وليلةٌ، فاغتنموا مدتكم القصيرةَ فيما أمكنكم من أخذِ هذه الجواهرِ الكثيرةِ.

١ - فأمّا الحازمونَ فأسرعوا إلى تلك الجواهرِ يتنقَّوْن منها ويحملونهُ إلى مخازنهم في السفينةِ، ويَجِدُّون ويجتهدون.

فإذا تعبوا تذكَّروا قَدْرَ تلك الجواهرِ التي يحصِّلونها، وكثرةَ قيمتِها، وقلَّةَ مُقامِهم في تلكَ الجزيرةِ، وأنّهم عن قليل راحلون منها لا يَقْدِرون على الازديادِ؛ فرفضوا الراحةَ، وتركوا الدِّعَةَ، وأقبلوا على الجِدِّ والاجتهاد.

وإن عَرَضَ لهم النومُ تذكَّروا ذلك فذهبَ عنهم لذَّةُ النوم والكرىٰ وتمثَّلوا: عند الصَّباحِ يَحْمَدُ القومُ السُّرىٰ.

٢ - وأمّا آخرونَ، فأخذوا من الجواهرِ شيئًا، واستراحوا في أوقاتِ الراحةَ، وناموا وقتَ النومِ.

٣- وأمَّا فرقةٌ أخرىٰ فلم يتعرَّضوا للجواهرِ أصلاً، وآثروا النومَ والراحةَ والتفرُّجَ.

أ - ومنهم قومٌ أقبلوا على بناءِ المساكنِ والقصورِ والدُّورِ.

ب - وقومٌ أقبلوا على جمعِ الزَّلَفِ والصَّدَفِ والحجارةِ والشَّقَفِ .

ج - وقومٌ أقبلوا على اللعبِ والتُّرَّهاتِ، وتشاغلوا باللذاتِ وسماعِ الحكاياتِ المطرباتِ، وقالوا: ذَرَّةٌ منقودةٌ خيرٌ من دُرَّةٍ موعودةٍ.

والفرقةُ الثالثةُ عَدَلوا إلى حِمى المَلِك، وطافوا به، فلم يجدوا له بابًا، ففتحوا لهم فيه ثَلْمًا واقتحموه، ففتحوا خزائنَ المَلِك، وكسروا أبوابَها، وانتهبوا منها، وعبثوا بجواري المَلِك والوِلْدان، وقالوا: ليس لنا دارٌ غيرُ هذه الدارِ. وأقاموا على ذلك حتى ذهبتْ مدَّةُ المُقامِ، وضُربتْ كؤوسُ الرحيلِ، ونُودي بالتحويلِ بالحثَّ والتعجيلِ.

فأمّا الذين حصَّلوا الجواهرَ، فرحلوا مغتبطينَ ببضائعهم، لا يأسَوْن على المُقامِ إلا للازديادِ ممّا كانوا فيه.

وأمَّا الفرقةُ الثانيةُ، فاشتدَّ جَزَعُهم لعدم استبضاعِهم، وكثرة تفريطهم، وقلَّةِ زادهم، وتركِهم ما عمَّروه، وارتحالِهم إلى ما خرَّبوه.

وأمّا الفرقةُ الثالثة، فكانوا أشدَّ جَزعًا، وأعظمَ مصيبةَ، وقيلَ لهم: لا نَدَعكم حتى نحمِّلكم ما أخرجتمْ من خزائنِ المَلِكِ في أعناقكمْ، وعلى ظهوركمْ. فارتَحَلوا على هذه الصفةِ حتى وردوا مدينةَ المَلِكِ العظمىٰ، فنُودي في المدينةِ أنه قد قدِمَ قومٌ كانوا في معادنِ الجواهر، فتلقّاهم أهلُ المدينةِ، وتلقّاهم الملك وجنوده، فاستنزلوهم، وقيل لهم: اعرضوا بضائعكم على المَلِكِ:

فأمّا أهلُ الجواهرِ، فعُرضتْ بضائعهم، فحَمِدَهُم المَلِكُ وقال :أنتم خاصَّتي وأهلُ مجالستي ومحبَّتي، ولكم ما شئتم من كرامتي. وجعلهم ملوكًا، لهم ما شاؤوا، وإن سألوا أُعْطُوا، وإن شَفَعوا شُفِّعوا وإن أرادوا شيئاً كان، فقيل لهم: خذوا ما شئتم، واحتكموا ما أردتم. فأخذوا القصورَ والدُّورَ والحُورَ والبساتينَ والقرىٰ والرَّساتيق، وركبوا المراكبَ، وسارَ بين أيديهم وحولهم الوِلْدانُ والجنودُ، وصاروا ملوكًا ينزلونَ في جوارِ المَلِك، ويجالسونه، وينظرونَ إليه، ويزورونه، ويشفعونَ إليه فيمن شاؤوا، وإن سألوهُ أعطاهم، وإن لم يسألوهُ ابتدأهم.

وأما الفرقةُ الثانيةُ فقيل لهم: أين بضائعكم؟

فقالوا: ما لنا بضاعةٌ!

قيل: ويحكم! أما كنتم في معادنِ الجوهرِ؟ أما كنتم أنتم وهؤلاءِ الذين صاروا ملوكًا في موضعٍ واحدٍ؟

قالوا: بلى، ولكنّا آثرنا الدَّعةَ والنومَ.

وقال بعضهم: اشتغلنا ببناءِ الدُّورِ والمساكنِ.

وقال آخرون: اشتغلنا بجمعِ الزَّلفِ والشَّقف.

فقيل لهم: تَبّـًا لكم! أما علمتم قلَّةَ مُقَامِكم، ونفاسةَ الجواهرِ التي عندكم؟! أما علمتم أن تلك ليست بدارِ مُقامٍ، ولا محلِّ منامٍ؟!

أما أيقظكم الأَيْقاظُ ؟ أمَا وعَظَكم الوُعَّاظ؟

قالوا: بلى والله، قد عَلِمْنا فتجاهلنا، وأُوْقِظْنا فتناومنا، وسمعنا فتصامَمْنا.

فقيل لهم: تَبّـًا لكم آخرَ الدهرِ.

فعضُّوا أيديَهم ندمـًا، وبَكوا على التفريطِ بعد الدموعِ دمـًا، وبَقُوا آسفين متحيِّرين، ووقفوا منتظرين أن يتصدَّقَ عليهم بعضُ الذين صاروا ملوكـًا بشفاعةٍ، أو يتكلَّم لهم عند المَلِكَ بكلمة!

وأما الفرقةُ الثالثةُ، فجاؤوا يحملون أوزارَهم على ظهورهم، يائسين مُبْلِسين، حيارىٰ، سُكارىٰ، قد زلَّتْ بهم القَدَمُ، وحَلَّ بهم النَّدَمُ، ونَزَلَ بهم الأَلَمُ، وافتَضَحوا عند الأُمَمِ، فأبعدهم المَلِكُ عن دارِه، وطردهم من جِواره، وأمرَ بهم إلى السِّجْن، فجُرُّوا إليه، قد أَيقنوا بالعذابِ، وجَلَّ أمرُهم عند العتاب.

﴿ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾[1]

فانظرْ – رحمك الله – إلى تفاوت ما بين المنزلتين، وما حصل من الفرقِ بين الفريقين، بالصبرِ في تلك المدةِ اليسيرةِ التي أقاموا في تلك الجزيرة !

فهذا تقريبُ مثالِ الدنيا ومن عملَ فيها بالطاعةِ، ومن استوعبها بالتفريطِ والإضاعةِ. فاجتهد رحمك الله في الكون من الفرقة الأولى، الذين استوعبوا الساعات بالطاعات، ولم يفرطوا في شيء من الأوقات

(١) [سورة فصلت: آية ٢٤].

التعليق:

هذا المثل الذي ضربه المؤلف مثل عجيب وفيه تصوير لحال أهل الدنيا وهم فيها.

وفيه من الدروس:

١) أن في ضرب الأمثال تقريب المعاني للأفهام.

٢) النظر إلى العواقب والمآلات فما أوتي من أوتي إلا بسبب جهله في العواقب وعدم نظره إلى المآل، وإنما يؤثر العاجلة على الآجلة واللذة المؤقتة على النعيم المقيم المؤجل وهو في الواقع قريبٌ عاجل، لأنه ليس بينه وبين الإنسان إلا الموت من جَهلِ العواقب.

٣) أن من آثر العاجلة فاتته العاجلة والآجلة وفاته الأجر والثواب والنعيم المقيم.

٤) النظر في حال هؤلاء المذكورين في المثل:

الأولون هم الحازمون الذين أخذوا جهدهم في الأعمال الصالحة وكلما فتروا تذكروا ما أُعد لهم من النعيم فجدوا واجتهدوا.

وتمثلوا: عند الصباح يحمد القوم السرىٰ [1] . وهذا مثل يضرب في احتمال المشقة والحث على الصبر حتى تحمد العاقبة.

وهؤلاء هم المفلحون المقربون الفائزون.

---

(١) «الأمثال» لأبي عبيد ص (١٧٠) .

وأما الفرقة الثانية فهم النادمون حيث فرّطوا في كثير من أوقاتهم وآثروا الدعة والراحة وتجاهلوا الأجور العظيمة على العبادات والطاعات اليسيرة.

وأما الفرقة الثالثة فهم الخاسرون. زلت بهم القدم وحلّ بهم الندم ونزل بهم الألم.

هؤلاء الذين ارتكبوا المعاصي والسيئات والموبقات وقابلوا الله سبحانه بما حملوه من الأوزار والآثام فكان جزاؤهم النار وبئس القرار.

فانظر لنفسك من أي الفِرق أنت .

ولهذا قال: «فاجتهدْ - رحمك الله - في الكونِ من الفرقة الأولى، الذين استوعبوا الساعاتِ بالطاعات، ولم يفرِّطوا في شيء من الأوقات».

نسأل الله أن يجعلنا منهم.

٥) عِظم مجاهدة النفس وكبير أثره، وأن الإنسان بمجاهدته يحصل على ما لم يحصل عليه غيره مع عدم المجاهدة.

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩ ﴾[1].

فجاهد نفسك أيها المبارك تجد ما يسرك.

📖 قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأَلْزِمْ قلبَكَ الفِكْرَ في نِعَمِ الله لتشكرَها، وفي ذنوبِك لتستغفرَها، وفي تفريطِك لتندمَ، وفي مخلوقاتِ الله وحِكَمِهِ لتعرفَ عظمتَهُ وحِكْمتَهُ، وفيما بين يديك لتستعدَّ له، أو في حكمِ شيءٍ تحتاجُ إليه لتعلمَهُ».

(١) [سورة العنكبوت: آية ٦٩].

التعليق:

أرشد المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ الموصىَ بأن يُلزم قلبه الفكر في نعم الله، وهذه فائدة مهمة ووصية نافعة.

إذا عمر الإنسان قلبه بالفكر والتفكر في نعم الله سبحانه زاد إيمانه وقوي يقينه. وحصل على فوائد متعددة منها:

١) شكر نعمة الله عَزَّوَجَلَّ .

والشكر من أجل العبادات والطاعات، وهو قيدٌ للنعم الموجودة وصيدٌ للنعم المفقودة.

وشكر الله عَزَّوَجَلَّ يكون بالقلب، واللسان، والجوارح.

القلب: بأن يقر بقلبه بنعم الله عليه وأنه المتفضل بها.

واللسان: بأن يلهج بالثناء على الله سبحانه.

والجوارح: بأن يستعملها في طاعة الله والعمل على مرضاته ..

٢) الاستغفار من الذنوب والمعاصي.

من فوائد الفكر: أن يستغفر الإنسان من ذنوبه ويرى تقصيره بحق مولاه وخالقه عَزَّوَجَلَّ فيكثر من الاستغفار.

٣) الندم على التفريط والتقصير، لأنه بتفكُّره في نعم الله يتذكر تفريطه وتقصيره فيندم ويحدث لذلك توبة وإنابة.

٤) معرفة عظمة الله عَزَّوَجَلَّ وحكمته في مخلوقاته وحِكَمه.

وهذه فائدة جليلة أن التفكر في مخلوقات الله وحكمه يعرف بها الإنسان عظمة الله عَزَّوَجَلَّ وحِكمته وأنه لم يخلق شيئًا من مخلوقاته عبثًا، وإنما خلقها لحكَم عظيمةٍ وأسرار.

قال تعالى ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾﴾[1].

قال الشيخ ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وإنما خلق الله السموات والأرض بالحق وللحق، فخلقهما ليعلم العباد كمال علمه وقدرته وسعة سلطانه، وأنه تعالى وحده المعبود دون من لم يخلق مثقال ذرة من السموات والأرض»[2].

وهكذا سائر المخلوقات خلقها عَزَّوَجَلَّ لبيان عظمته وكمال قدرته وتمام حكمته، وفيها منافع للعباد.

٥- الاستعداد ليوم المعاد، ولذا قال: «وفيما بين يديك لتستعّد له»

فإذا ألزم الإنسان قلبه الفكر استعد لما أمامه بالأعمال الصالحة والبعد عن المعاصي والسيئات، لأنه يعلم أنه لم يُخلق عبثًا ولن يترك سدى.

٦) معرفة حكم ما يحتاج إليه، لقوله: «أو في حكم شيء تحتاج إليه فتعلمه».

يعني أن التفكر يحمل الإنسان على الجد والاجتهاد والعلم الذي يوصله إلى الله وإلى دار كرامته.

العلم به سبحانه بأسمائه وصفاته وآياته وأحكامه.

---

(١) [سورة ص: آية ٢٧].

(٢) «تفسيره» ص (٨٤٠).

والعلم برسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومحبته واتباعه.

والعلم بأحكام الفرائض والواجبات ليؤديها على الوجه الذي أُمر.

والعلم بحقوق الآخرين ليقوم بها ولا يُقصِّر في أدائها، فهذه فوائد التفكر في النعم والذنوب وغيرها.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأَلْزِمْ لسانَكَ ذِكْرَ الله تعالى، ودُعاءَهُ واستغفارَه، أو قراءةِ قرآنٍ، أو علمٍ، أو تعليمٍ، أو أمرٍ بمعروفٍ أو نهيٍ عن منكرٍ، أو إِصلاحٍ بين الناسِ».

التعليق:

أرشد رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى ما يتعلق باللسان وأنه ينبغي للإنسان أن يشغل لسانه بذكر الرحمن، ومن أشغل لسانه بذلك أفلح وفاز وسلم من القيل والقال ومن كل قول محرم.

ومن أفضل ما يُشغِل الإنسان به لسانه تلاوة القرآن الكريم وتدبره وذلك بأن يجعل له ورداً يومياً لا يخل به منه مع الحرص على تدبره وتفهُّم معانيه.

قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾[1].

* ثم يليه ذكر الله عَزَّوَجَلَّ، فان للذكر فوائد لا تحصى[2] ولو لم يكن من فوائده إلا أن الله يذكر من ذكره لكفى بها حثاً على الذكر وملازمته.

---

(١) [سورة ص: آية ٢٩].

(٢) ذكر ابن القيم في «الوابل الصيب» للذكر أكثر من ستين فائدة .

قال تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾[(١)].

وقال سبحانه في الحديث القدسي: «أنا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ حِينَ يَذْكُرُنِي، إِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ، ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ، ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ ...»[(٢)].

* والدعاء والاستغفار وهما من المهمات.

فالدعاء عبادة، وبه يناجي العبد ربه ويسأله حاجته ويظهر افتقاره وذله لمولاه وخالقه.

والاستغفار حث عليه وأمر به الملك الغفار، وطبقه بفعله سيد الأبرار وهو سبب لمغفرة الذنوب والأوزار، قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»[(٣)].

وقال: «إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة»[(٤)].

وقال: «والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم»[(٥)].

* والعلم والتعليم من أفضل العبادات.

فبالعلم يرتقي العبد درجات، ويرتفع إلى أعلى المقامات.

---

(١) [سورة البقرة: آية ١٥٢].

(٢) رواه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).

(٣) رواه البخاري (٦٣٠٧).

(٤) رواه مسلم (٢٧٠٢).

(٥) رواه مسلم (٢٧٤٩).

﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾[1].

وبالتعليم والتوجيه والإرشاد يحصل له من الخير والأجر مثل أُجور من علمهم لا ينقص من أجورهم شيئًا، وفيه دلالة على الخير وإعانة عليه.

ومع الإخلاص وحسن القصد يُعط من الأجر والثواب مالم يُعط غَيره.

ومثل ذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهما سبب خيرية هذه الأمة، وفيه من الفوائد ما لا يحصى من تقويم المنحرفين، وتقوية الصالحين، وعموم الأمن والرخاء في بلاد المسلمين.

وكذا الإصلاح بين الناس فإنه من خير الأعمال، قال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾[2].

وفيه من التآلف والتوادد والترابط وقطع طرق الشيطان ما لا يخفى، ويزداد الأجر والثواب مع حسن القصد والاحتساب.

فهذه الأعمال الجليلة من أعمال اللسان من أشغل نفسه بها ووفِّق إليها فقد وفق لكل خير.

وهو مع ذلك يحتاج إلى مجاهدة واستعانة بربه سبحانه وبحمده.

📖 **قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأَشْغِلْ جوارحَكَ بالطاعاتِ، وليكنْ من أهمِّها الفرائضُ في أوقاتِها على أكملِ أحوالها، ثم ما يتعدَّى نَفْعهُ إلى الخلقِ، وأفضلُ ذلك ما نَفَعهم في دينهم، كتعليمهم الدِّين، وهدايتهم إلى الصراطِ المستقيمِ».**

---

(١) [سورة المجادلة: آية ١١].

(٢) [سورة النساء: آية ١١٤].

التعليق:

بعد أن ذكر القلب واللسان . ذكر هنا الجوارح، وأشار إلى أمرين:

الأمر الأول: «واشغل جوارحك بالطاعات» يعني بالعبادات على اختلاف أنواعها.

ومن أهمها: الفرائض على أكمل أحوالها بأن تؤديها في أوقاتها بانشراح وطمأنينة وإتقان.

قال الله عَزَّوَجَلَّ في الحديث القدسي: «وما تقرّب إلي عبدي بشيء أحبّ إلي مما أفترضت عليه».[(١)]

فإكمال الفرائض وإتمامها في أوقاتها من أهم المهمات، ومن راقب الله فيها وأداها كما أُمر فقد أفلح.

جاء رجل إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فسأله عن الفرائض فقال: هل عليّ غيرها؟

قال: لا، إلا أن تطوَّع، فقال الرجل: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص» فقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «أفلح إن صدق» متفق عليه[(٢)].

الأمر الثاني: ما يتعدَّى نفعه من الإحسان وبذل الخير والمعروف للغير، وأفضله تعليم العلم فإنه المـَعين الذي لا ينضب، والأجر الذي لا ينقطع.

والأحاديث في بيان فضل تعليم العلم وإرشاد الناس ونفعهم كثيرة لا تحصى.

❊❊❊

(١) رواه البخاري، برقم (٦٥٠٢) .

(٢) «صحيح البخاري» (٤٦)، «صحيح مسلم» (١١) .

الفصل الثاني

مفسدات الأعمال

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «واحترسْ من مفسداتِ الأعمال؛ لئلا يَفْسُدَ عملُك ويَخيبَ سعيك؛ فلا تحصلُ على أجر العاملين، ولا راحة البطَّالين، وتفوِّتَك الدنيا والآخرة».

التعليق:

شرع في هذا الفصل ببيان أمر خطير يجب الحذر منه وهو مفسدات الأعمال أي: مبطلات الأعمال.

ومبطلات الأعمال تنقسم إلى قسمين:

مبطلات العمل من أصله.

ومبطلات العمل في أثنائه.

وكلتاهما مذمومتان يجب الحذر منهما.

مبطلات العمل من أصله كمن أبتدأ العبادة من أولها لغير الله فعمله باطل من أصله، والعياذ بالله.

ومبطلات العمل في أثنائه كمن أبتدأ العبادة لله ثم طرأ عليه المبطل من رياء ونحوه في أثنائها واستمر معه فعمله باطل أيضـًا.

وهذه المفسدات ذكر المؤلف أنه يجب أن يحترس الإنسان منها أي: يتوقىّ قدر المستطاع . لئلا يفسد عمله ويخيب سعيه أي يبطل ويُرد.

فلا يحصل على أجر العاملين الذين احترسوا من المفسدات، ولا راحة البطَّالين الذين تهاونوا في المفسدات فلا خير يرجون ولا ثواب يؤملون.

وحينئذ تفوّته هذه المفسدات الدنيا والدين، فيصبح من الخاسرين.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فمن ذلك الرِّياءُ، والعملُ لمحمدةِ الناسِ، فإنَّ هذا شركٌ.

وقد رُوي عن اللهِ تعالى أنهُ قال: «مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فيهِ غيري، فهو للذي أَشْرَكَ، وأنا منهُ بريءٌ.

وقد لا يحصلُ للمرائي ما قَصَدَهُ، فيخيبُ بالكلِّية!

فقد رَوَيْنا أن رجلاً كان يُرائي بعملهِ، فإذا مرَّ بالناسِ قالوا: هذا مُراءٍ. فقال يومًا في نفسهِ: والله ما حصلتُ على شيءٍ، فلو جعلتُ عملي للهِ!

فما زادَ على أن قلب نيَّته.

فكان إذا مرَّ بهم بعدُ قالوا: هذا رجلٌ صالحٌ».

التعليق:

هذا أول المفسدات التي يجب الاحتراس منها.

وهو الرياء.

الرياء: مصدر راءى يرائي، أي: عَمِل عملاً ليراه الناس.

ويقال: مراءاة كما يقال: جاهد جهاداً ومجاهدة.

ويدخل في ذلك من عَمِل العمل ليسمعه الناس يقال له مسمَّع، وقد قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «من سمَّع سمَّع الله به، ومن راءى راءى الله به»(١).

والرياء خلق ذميم، وهو من صفات المنافقين قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ١٤٢﴾(٢).

---

(١) رواه البخاري (٦٤٩٩)، ومسلم (٢٩٨٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) [سورة النساء: آية ١٤٢].

وهو كما قال المؤلف شرك، يعني شرك أصغر، لأن الإنسان يقصد بعبادته غير الله، وقد يصل إلى الأكبر. ومثَّل ابن القيم للشرك الأصغر فقال: «مثل يسير الرياء». وهذا يدل على أن الرياء الكثير قد يصل إلى الأكبر[١].

وقوله: وروي عن الله تعالى أنه قال: «من عمل عملاً أشرك فيه غيري، فهو للذي أشرك، وأنا منهُ بريءٌ».

هذا حديث قدسي: أخرجه ابن ماجه (٤٢٠٢)، وأحمد (٨٠٠٠)، وإسناده جيد.

وعند مسلم (٢٩٨٠) بلفظ: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه».

■ وفيه من الفوائد:

١) بيان غنى الله تعالى.

٢) بيان عِظم حق الله سبحانه، وأنه لا يجوز لأحد أن يشرك أحداً معه في حقه.

٣) بطلان العمل الذي صاحبه الرياء؛ لقوله «وأنا منه بريء».

٤) تحريم الرياء لأن ترك الإنسان وعمله وعدم قبوله يدل على الغضب، وما أوجب الغضب فهو محرَّم.

٥) أن صفات الأفعال لا حصر لها، لأنها متعلقة بفعل الله، ولم يزل الله ولا يزال فعَّالاً[٢].

---

(١) «القول المفيد على كتاب التوحيد» لشيخنا ابن عثيمين (٢/ ١٢٤).

(٢) «القول المفيد» (٢/ ١٣٠).

٦) أنه ينبغي للعبد أن يجاهد نفسه وأن يراقب ربه في أن يجعل عمله كله لله ولا يشرك معه أحداً فهو أسلم لدينه وإيمانه وأتقى لربه.

والرياء قد يعرض للعبادة في أثنائها، وهنا يجب على الإنسان أن يدافعه ولا يركن إليه، بل يعرض عنه ويكرهه فهذا لا يؤثر عليه.

قال شيخنا ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وليس من الرياء أن يفرح الإنسان بعلم الناس بعبادته، لأن هذا إنما طرأ بعد الفراغ من العبادة، وليس من الرياء أيضاً أن يفرح بفعل الطاعة في نفسه، بل ذلك دليل على إيمانه، قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من سرَّتْهُ حسنتُهُ وساءتْهُ سيِّئتُهُ فهو مؤمنٌ[(١)]»، وقد سئل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ذلك، فقال: «تلك عاجل بشرى المؤمن[(٢)(٣)]».

وقول المؤلف: «وقد لا يحصل للمرائي ما قصدهُ، فيخيبُ بالكلية!».

صحيح، ومعناه أنه يخسر دينه ودنياه .

وليس معناه أنه إذا قصد ما راءى من أجله فلا حرج عليه؛ بل مراده أنه لن يستفيد من مراءاته ولن يحصل على مراده فيخيب ويخسر، والعياذ بالله.

والقصة التي ذكرها فيها دروس

منها: أن مدار الأعمال على القلب فإذا صدق الإنسان في نيته أحسن الله جزاءه.

ومنها: أن من وقع منه الرياء فليبادر بالخلاص منه وليقلب نيته لله جل في علاه، وليقل: «اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك شيئاً وأنا أعلم واستغفرك لما لا أعلم».

---

(١) أخرجه الترمذي (٢١٦٥) .

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٤٢) .

(٣) «القول المفيد»(٢/ ١٣٦) .

ومنها: أن من أصلح سريرته أصلح الله علانيته وجعل ألسنة الناس تلهج بالثناء عليه.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن ذلك: العُجْبُ.

فقد رُوي أن المُدْلي لا يجاوزُ عملُه رأسَهُ.

ورُوي أن الله تعالى أوحى إلى موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: يا موسى، قل للعاملين المُعْجَبين: اخسروا، وقل للمذنبين التائبين: أبشروا.

وقال بعضُهم: لأَنْ أبيتَ نائمًا وأُصبحَ نادمًا، أحبُّ إليَّ من أنْ أبيت قائمًا وأُصبح معجبًا».

التعليق:

العجب لغة: الزَّهْوُ والكِبْرُ.

واصطلاحاً: عبارة عن تصوُّر استحقاق الشخص رتبةً لا يكون مستحقًا لها [(١)].

فهو حالة نفسية يتصور الإنسان معها أنه أولى من غيره فيما لا يستحقه.

وهو مذموم ومنهي عنه.

قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بيْنما رجلٌ يمشِي في حُلَّةٍ تُعجِبُهُ نفسُهُ، مُرَجِّلٌ جُمَّتَهُ، إذْ خسَفَ اللهُ بِهِ الأرْضَ، فهو يتجلْجَلُ فيها إلى يومِ القيامَةِ» متفق عليه[(٢)].

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يفيد هذا الحديث ترك الأمن من تعجيل المؤاخذة

(١) «التعريفات» للجرجاني ص ١٤٧ .

(٢) «صحيح البخاري» (٥٧٨٩) ومسلم (٢٠٨٨) .

على الذنوب، وأن عجب المرء بنفسه وثوبه وهيئته حرام وكبيرة»[١].

قال علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «الإعجاب ضد الصواب، وآفة الألباب[٢]».

وقال أبو الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «علامة الجهل ثلاث: العُجب، وكثرة المنطق فيما لا يعنيه، وأن ينهى عن شيء ويأتيه[٣]».

■ **وللعجب آثار سيئة منها:**

١) أنه يدعو إلى الكِبر، لأنه أحد أسبابه . قال ابن الجوزي: «اعلم أن من أسباب الكبر العُجب، فإن من أعجب بشيء تكبَّر به» [٤].

٢) أنه يتولّد عنه الكثير من الأخلاق السيئة، والصفات الرديئة.

٣) يدعو إلى إهمال الذنوب ونسيانها فلا يحدث العبد بعد ذلك توبة.

٤) يجعل العبد يستعظم أعماله وطاعاته، ويَمُنُّ على الله بها.

٥) يدعو العبد إلى الاغترار بنفسه وبرأيه، ويأمن مكر الله وعذابه، ويظن أنه عند الله بمكانه.

٦) يمنعه عن سؤال أهلِ العلم.

٧) يفتِّره عن السعي، لظَنه أنه قد فاز واستغنى، وهو الهلاك الصريح.

٨) يُخفي المحاسن ويُظهر المساوئ، ويصُّد عن الفضائل.

---

(١) «طرح التثريب» (٨/ ١٦٩) .
(٢) «أدب الدين والدنيا» للماوردي ص (٤٤٦) .
(٣) «جامع بيان العلم وفضله» ص (٢٢٦) .
(٤) «غذاء الألباب» للسفاريني (٢/ ١٧٤) .

٩) يُحبط العمل ويفسده ويذهب به.

قال ابن القيم: «لا شيء أفسد للأعمال من العجب ورؤية النفس»[(١)].

١٠) يدعو العبد إلى المَنِّ بما يقدم من معروف.

١١) طريق إلى خذلان العبد، بحيث يَكِله الله إلى نفسه فلا ينصره، ولا يؤيده.

١٢) من اتصف به ساءت عاقبته في الدنيا والآخرة[(٢)].

وقول المصنف: «وقد روي أن المدلي لا يجاوِز عمله رأسه». هذا أثر ولم يرو مرفوعـًا.

وهو يدل على أن عمل المدلي - يعني المعجب - لا يرفع والعياذ بالله لأنه يمن على الله به، فهو على خطر.

وقوله: «وروي أن الله تعالى أوحى إلى موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: يا موسى، قل للعاملين المُعْجَبين: اخسروا، وقل للمذنبين التائبين: أبشروا».

هذا الأثر أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٤٥)، (٧/ ١٢٧) من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا وإسناده ضعيف.

قال أبو نعيم: «غريب من حديث الثوري، عن منصور، عن مجاهد لم نكتبه إلا من حديث أبي الربيع».[(٣)]

وأخرجه أيضـًا (٦/ ٥)، والخلعي في «الفوائد المنتقاة الحسان من الصحاح

---

(١) «الفوائد» ص (١٥٢).

(٢) انظر: «موسوعة الأخلاق» موقع الدرر السنية.

(٣) وانظر: «سلسلة الأحاديث الضعيفة» للألباني (٢٣٠٩).

الغرائب» (١٨١) من قول كعب الأحبار؛ وهو الأقرب.

وقوله: «وقال بعضهم: لأن أبيت نائمـًا، وأصبح نادمـًا أحبُّ إليَّ من أن أبيت قائمـًا وأصبح معجبـًا».

هذا من قول مطرف بن عبدالله بن الشخير رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت٨٧هـ).

أورده ابن المبارك في «الزهد والرقائق» (٤٤٨)، والإمام أحمد في «الزهد» (١٣٤٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٢٠٠)، والذهبي في «السير» (٤/ ١٩٠) وعلَّق عليه بقوله: «لا أفلح – والله – من زكَّى نفسه أو أعجبته».

وقول مطرّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا يدل على تواضعه مع جلالة قدره.

ويدل على خطر العُجب . وأن العمل اليسير بدون عجب بل مع الإقرار بالتقصير والندم خيرٌ من العمل الكثير وفيه شيء من العجب ورؤية النفس.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولا تحقرنَّ مسلمـًا، ولا تظنَنَّ أنَّك خيرٌ منه، فإنَّ ذلك ربّما أحبطَ عملكَ.

وقد روينا أن عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ خرجَ في سياحتهِ ومعه حواريُّه، فمرّا بقلعةٍ فيها لصٌّ، فلمّا رآهما قال لنفسهِ: هذا عيسى نبيُّ اللهِ، وهذا حواريُّه، ومن أنت يا شقيُّ؟ لصٌّ تقطعُ الطريقَ، وتخيفُ السبيلَ، وتقتلُ النفسَ التي حرَّمَ الله!

فنزل إليهما تائبـًا نادمـًا.

فلما أرادَ أن يمشي معهما، قال لنفسه: ما أنا بأهلٍ أنْ أمشيَ معهما، ولكنْ أمشي خلفهما كما يمشي المذنبُ الذليلُ.

فمشى خلفهما، فالتفتَ الحواريُّ، فرآه يمشي خلفهما، فعرفَهُ، فقالَ في نفسِهِ: من هذا الكلبُ حتى يمشي خلفنا؟

فاطَّلعَ اللهُ تعالى على ما في أنفسِهما، فأوحى اللهُ إلى عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: أن قل للحواريِّ واللصِّ يستأنفانِ العملَ؛ أما اللصُّ فقد غفرتُ له بتوبتهِ وازدرائهِ على نفسهِ، وأمّا الحواريُّ فقد أحبطتُ عملَهُ بازدرائهِ اللصَّ التائبَ.

وقال بعضُ أنبياء بني إسرائيلَ لقومِه: ائتوني بخيركم.

فأتوه برجلٍ، فقال له النبيُّ: ائتني بشرِّهم!

فرجعَ بنفسهِ فقال: ما وجدتُ فيهم شرّاً مني!

فقال: صدقوا، أنت خيرُهم!

التعليق:

هذا من مفسدات الأعمال: وهو تحقير المسلم وازدراؤه.

قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بحسب امرئٍ من الشر أن يحقر أخاه المسلم» رواه مسلم[(١)].

والمعنى: أنه لو لم يكن من الشر للمسلم إلا أن يحقر أخاه ويستصغره ويستذله، لكان كافياً في الإثم؛ والعياذ بالله.

وفي هذا أعظم زاجر من احتقار أخيك المسلم وأن الواجب عليك أن تحترمه وتعظمه بما فيه من الإسلام والإيمان»[(٢)].

---

(١) برقم (٢٥٦٤).

(٢) «شرح رياض الصالحين» لشيخنا ابن عثيمين (٢/ ٥٧٤).

ومن احتقاره أن تظن أنك خيرٌ منه أو أكثر إيمانـًا لله منه فإن ذلك ربما يحبط عملك وأنت لا تشعر والعياذ بالله.

ثم ذكر المؤلف قصة اللص من بني إسرائيل وتوبته.

وقد أخرجها المؤلف في كتابه «التوابين» بسنده من قول وهيب بن الورد[(١)]. وفي إسناده ضعف.

وفيها من الدروس: أن احتقار المسلم له أثر في حبوط العمل.

ثم ذكر قصة بعض أنبياء بني إسرائيل مع الرجل من قومه الذي قال: «ما وجدت فيهم شراً مني» فصار هو خيرهم[(٢)].

وهذا يدل على أن اعتراف الإنسان بتقصيره وذنبه وتفريطه وعدم ترفعّه أو احتقاره للآخرين علامة على صلاحه وقوة إيمانه.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن ذلك: مخالفةُ السنة قولاً أو فعلاً أو اعتقاداً، فإن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الدليلُ الهادي إلى الصراط المستقيم. قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾[(٣)].

فمن خالف الدليل وأخذ غيرَ طريقه ضلَّ، بل اتِّبعِ السنة: سِرْ حيثُ سارت، وقِفْ حيث وقفتْ.

ولا تتجاوزْها فتغلو في دينك، مثل الوسوسةِ في الطهارةِ والصلاةِ، والزيادةِ على الغسلاتِ المشروعةِ، والإسرافِ في الماءِ، وتنجيسِ ما كان النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

(١) برقم (٣٨).
(٢) لم أقف عليه، وهو من أخبار بني إسرائيل.
(٣) [سورة الشورى: آية ٥٢].

يستعملُه ويطهِّرهُ، والصلاةِ في وقتِ نهيهِ، والصومِ فيما نُهي عنه».

التعليق:

ذكر المصنف هنا أن من مفسدات الأعمال: مخالفة السنة.

بقول: بأن يأتي بقول أو ذكر لم يشرعه الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

أو فعل: بأن يفعل عبادة أو طاعة لم يشرعها الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

أو اعتقاد: بأن يعتقد في الله عَزَّوَجَلَّ وفي أسمائه وصفاته خلاف ما بينه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكان عليه هو وأصحابه وسلف هذه الأمة وأئمتها.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الدليلُ الهادي إلى الصراط المستقيم. قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾[1].

هو الدليلُ الهادي إلى الصراط المستقيم: الذي دلنا على الصراط وأرشدنا إليه وحذّرنا من مخالفته.

وفي الآية الكريمة دليل على ذلك، والمراد بالهداية هنا هداية الدلالة والإرشاد والترغيب والبيان.

وقوله: «فمن خالف الدليل وأخذ غيرَ طريقه ضلَّ» وهو كذلك؛ فإن من خالف النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسلك طريقًا غير طريقه ضل وابتدع وزاغ عن الصراط المستقيم - والعياذ بالله - قال تعالى ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾[2].

---

(١) [سورة الشورى: آية ٥٢].

(٢) [سورة النور: آية ٦٣].

قال الإمام أحمد: «أتدري ما الفتنة: الفتنة الشرك، لعلَّه إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك» (١)

وقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى. قيل: ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى» رواه البخاري (٢).

وفيه دليل على أن من أسباب دخول الجنة ملازمة السنة وطاعة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعدم مخالفته.

وعن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد» متفق عليه(٣)، وفي رواية لمسلم: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد».

وفيه دليل على أن من شرط قبول العمل أن يكون المرء متبعاً فيه رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ودليل على تحريم البدع وهي: كلُّ ما أحدث في الدين مما لا أصل له في الشرع يدل عليه.

وقوله: «بل اتّبع السنة: سر حيثُ سارت، وقف حيث وقفتْ».

وصدق رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وبهذا تفلح وتسعد.

ثم قال: «ولا تتجاوزْها فتغلو في دينك، مثل الوسوسةِ في الطهارةِ والصلاةِ ...»

---

(١) كتاب التوحيد - القول المفيد (٢/ ١٥٤).

(٢) «صحيح البخاري» (٧٢٨٠).

(٣) «صحيح البخاري» (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨).

أراد رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يبين أن مجاوزة السنةُ يدخِل العبد إما في الغلو المنهي عنه، أو التنطع. وذكر لذلك أمثلة،

منها: الوسوسة في الطهارة والصلاة.

الوسوسة من الشيطان، وهي بلاء خطير وشرٌ مستطير، يبقى الإنسان معه في دوّامة إلا أن يشاء الله ... وعلاجه بالاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم، والإكثار من قراءة المعوذتين، والإعراض عنه، والانتهاء وعدم الاسترسال معه.

قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يأتي الشيطان أحدكم فيقول من خلق كذا وكذا حتى يقول له من خلق ربك، فإذا بلغ ذلك فليستعذ بالله ولينته» متفق عليه (١).

وقال في الرجل يُخيّل إليه أنه يجد الشيء في الصلاة، فقال: «لا ينصرف حتى يسمع صوتـًا أو يجد ريحـًا» متفق عليه (٢).

قال: «والزيادة على الغسلات المشروعة»

الغسلات المشروعة ثلاث، والزيادة عليها مكروه.

عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رجلاً جاء إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يسأله عن الوضوء، فأراه الوضوء ثلاثـًا ثم قال: «هكذا الوضوء، فمن زاد فقد تعدى وأساء وظلم»(٣). قال عبدالله ابن المبارك: «لا آمن إذا زاد في الوضوء على الثلاث أن يأثم»، وقال الإمام أحمد: «لا يزيد على الثلاث إلا رجلٌ مبتلى»(٤)

(١) «صحيح البخاري»(٣٢٧٦)، و«مسلم» (٢١٤).
(٢) «صحيح البخاري» (١٣٧)، و«مسلم» (٣٦١).
(٣) رواه أبو داود (١٣٥)، والنسائي (١٤٠)، وابن ماجه (٤٢٢).
(٤) «سنن الترمذي» (١/ ٩٩).

وقال البخاري في «صحيحه»: «وكره أهل العلم الإسراف فيه، وأن يجاوزوا فعل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ »[١].

قال: «والإسراف في الماء»

الإسراف في ماء الوضوء والغسل مكروه، وهو من وساوس الشيطان.

وقوله: «وتنجيسِ ما كان النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستعملُه ويطهِّرهُ» يعني: اعتقاد نجاسة ما كان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستعمله ويطهِّرهُ ومع ذلك لا يضره. مثل صلاته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في النعال، ومثل بول الصبي على ثوبه فأتبعه بماء وصلّى فيه.

«والصلاة في وقت نهيه»

الصلاة في وقت النهي محرمة، لأن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهى عنها، وهي من بعد صلاة الفجر حتى ترتفع الشمس قيد رمح، ومن ارتفاعها في وسط السماء حتى تزول، ومن بعد صلاة العصر حتى تغرب الشمس.

وبين عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ السبب في ذلك أن الشمس تطلع بين قرني شيطان وحينئذ يسجد لها الكفار [٢]. فنهانا عن الصلاة في هذين الوقتين لئلا نتشبه بهم، وفي الأوقات الأخرى سداً للذريعة لئلا يستمر الإنسان في الصلاة حتى يقع في الوقت المنهي عنه.

«والصوم فيما نهي عنه»

يعني: في الأيام أو الأحوال التي نهى عنها .

---

(١) «صحيح البخاري» – كتاب الوضوء – باب ما جاء في الوضوء .

(٢) رواه مسلم (٦١٢) من حديث عبدالله بن عمرو .

الأيام سواء كانت محرمة كصيام العيدين، أو مكروهة كإفراد صوم يوم الجمعة.

والأحوال كالوصال في الصوم، وصوم الدهر وما أشبه ذلك، فهذا كله يُدخل الإنسان في الغلو في الدين والتنطع.

قال المؤلف: «قال أبو سليمان الداراني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إذا أردتَ عملاً ترى أنه طاعةٌ، فانظرْ، فإن وردتْ به السُّنَّةُ، وإلا فَدَعْهُ. أو كما قال. وإذا دعتكَ نفسُكَ إلى معصيةٍ، فذكّرْها سوءَ عاقبتِها».

التعليق:

هذا الذي قاله أبو سليمان عبد الرحمن بن أحمد الداراني رَحِمَهُ ٱللَّهُ ت (٢٠٥هـ) حق. وهو منهج وقاعدة ينبغي أن يسير عليها الإنسان أن ينظر في العمل قبل أن يعمله.

- إن وردت به السنة فاعمله، وان لم ترد فدعه، وأضيف ومع عملك له استحضر أداء العبادة والاقتداء بالنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيها.

- وإذا دعتك إلى معصية.

فذكرّها سوء عاقبتها في الدنيا بالضيق والخسار، وفي الآخرة بالإثم والعار وعذاب النار والعياذ بالله.

فهذا أقوى رادع لها عن فعلها.

اللهم أعصمنا بدينك ،

وأعذنا من مظلات الفتن.

الفصل الثالث

المراقبة والخشية

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «واعلمْ أنَّ الله تعالى ناظِرٌ إليكَ، مطَّلعٌ عليكَ، فقل لنفسِكَ: لو كانَ رجلٌ من صالحي قومي يراني لاستحيتُ منه، فكيف لا أستحي من ربّي تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، ثم لا آمَنُ تعجيلَ عقوبتهِ وكشفَ سترهِ؟».

التعليق:

* ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا ما يتعلق بمراقبة الله عَزَّوَجَلَّ، واستحضار ذلك في القلب، لأن الإنسان يستفيد من مراقبته واستحضار أن الله معه عدةَ فوائد منها:

- امتثال الأوامر واجتناب النواهي بحيث لا يراك الله حيث نهاك ولا يفقدك حيث أمرك.
- التعبد لله بأسمائه الحسنى ... فاسمه سبحانه (البصير) يبصر أعمالك ولا يخفى عليه منها شيء، واسمه (السميع) يسمع كلامك وما تتلفظ به .. فيحملك ذلك على حفظ اللسان وعدم الكلام بما لا يرضى الرحمن. وهكذا جميع أسمائه الحسنى.
- أنه يوقِر في القلب عظمة الرب عَزَّوَجَلَّ وكبريائه وإجلاله سبحانه.
- الحياء من الله عَزَّوَجَلَّ بحيث لا يُقدم على عمل لا يرضيه أو يرتكب معصية. وقد روي عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «ستحيوا من الله حقَّ الحياء، قلنا: يا رسول الله، إنا لنستحيي والحمد لله، قال: ليس ذلك، ولكن الاستحياء من الله حقَّ الحياء أن تحفظ الرأس وما وَعَى، والبطن وما حَوى، وأن تذكُر الموت والبِلَى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء»[1].

(١) رواه الترمذي (١/ ٢٤٥) وقال: «هذا حديث غريب».

- وكما قال المؤلف: «قل لنفسك: لو كان رجلٌ من صالحي قومي يراني لاستحيت منه، فكيف لا أستحي من ربي تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ».
- الخوف والوجل من حلول العقوبة العاجلة على ارتكاب المعصية، وما يدريه لعله يقع في معصية ثم يموت بغتة.

قال: «**واعلم أنك لا تقدر على معصيته إلا بنعمته! فكم له عليك من نعمة في يدك التي مددتها إلى معصيته؟ وكم من نعمة في عينك التي نظرت بها إلى ما حَّرم عليك؟ وفي لسانك الذي نطقت به بما لا يحلُّ لك؟ وليس من شكْرِ إنعامهِ أن تستعينَ بها على معاصيهِ**».

التعليق:

* هذا صحيح .. لا ينبغي لك أن تستعين بنعم الله على معاصيه . ونعمه كثيرة لا حصر لها.

فانظر إلى نفسك وذكِّرها كيف ترتكب معصية بعضو من أعضائك التي منَّ الله عليك بها وسلّمها لك وعافاك فهذا من كفر النعمة.

وقد قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ ﴾[1].

■ فمن عصى الله عَزَّوَجَلَّ فقد وقع في محظورين:

* **الأول:** أنه لم يعرف قدر النعمة التي من الله بها عليه في بدنه وفي أعضائه التي عصى الله فيها.

(١) [سورة إبراهيم: آية ٧].

* **الثانية:** أنه لم يشكر الله على نعمة العافية والأعضاء.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كان بعضُهم يقول: اللهم إني استغفركَ من خطيئةٍ قوِيَ عليها بدني بعافيتِكَ، ونالَتْها يدي بفضلِ نعمتِكَ، وانبسطتُ فيها بسعةَ رزقِكَ، واحتجبتُ فيها عن الناسِ بسترك، وجرَّأني عليها حِلْمُكَ وأناتُك، واتكلتُ فيها على كريمِ عفوِكَ».

التعليق:

في بعض الأدعية المأثورة عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شيء من ذلك، ففي حديث سيد الاستغفار: «أبوء لك بنعمتك عليَّ، وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت».

قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من قالها من النهار موقنًا بها فمات من يومه قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة» رواه البخاري [(١)].

قال: «ولو لم يكن من نعمهِ عليك في معصيتك إلا سترها عليك لكفى، فلو اطلعَ الناسُ عليك لا نهتكْتَ».

التعليق:

هذا صحيح، مِن نعم الله على العبد أن ستر عليه ذنوبه فلم يطَّلع عليها الخلق لئلا يفتضح وتسوء حاله.

---

(١) برقم (٦٣٠٦).

وقد روى البخاري عن ابْنَ عُمَرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا سَأَلَه: كيفَ سَمِعْتَ رَسولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولُ في النَّجْوَى؟ قالَ: «يَدْنُو أحَدُكُمْ مِن رَبِّهِ حتَّى يَضَعَ كَنَفَهُ عليه، فيَقولُ: عَمِلْتَ كَذَا وكَذَا؟ فيَقولُ: نَعَمْ، ويقولُ: عَمِلْتَ كَذَا وكَذَا؟ فيَقولُ: نَعَمْ، فيُقَرِّرُهُ، ثُمَّ يقولُ: إنِّي سَتَرْتُ عَلَيْكَ في الدُّنْيَا، وأَنَا أغْفِرُهَا لكَ اليومَ»(١).

وفي هذا الحديث دليل على أن ستر الله تعالى على المؤمن في الدنيا من فضل الله تعالى عليه، وهو كذلك، وقد ذُكر أن بني إسرائيل كان الواحد منهم إذا أذنب ذنبًا كُتِب على باب بيته في الصباح نعوذ بالله. فضيحة وعورة، أما نحن -ولله الحمد- فإن الإنسان مُستتر بستر الله(٢)»

قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: في قوله تعالى ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾(٣) قال: «أما الظاهرة فبالإسلام وما حسن من خلقك وأفضل عليك من الرزق، وأما الباطنة فما ستر عليك من الذنوب والعيوب»(٤).

قال ابن بطال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وفي سَتر المؤمن على نفسه منافع:

منها: أنه إذا اختفى بالذنب عن العباد لم يستخفوا به ولا استذلوه، لأن المعاصي تذل أهلها.

ومنها: أنه إن كان ذنبًا يوجب الحد سقطت عنه المطالبة في الدنيا، وفي المجاهرة بالمعاصي استخفاف بحق الله وحق رسوله وضرب من الفساد لهما،

---

(١) «صحيح البخاري» (٢٤٤١)، (٤٦٨٥)، (٦٠٧٠).

(٢) «التعليق على صحيح البخاري»، لشيخنا ابن عثيمين (١٣ / ٢٤٠).

(٣) [سورة لقمان: آية ٢٠].

(٤) ذكره ابن الجوزي في «زاد المسير» (٦/ ٣٢٤).

فلذلك قال عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «كل أمتي معافى إلا المجاهرين»(١)(٢).

قلت: وفي قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كل أمتي معافى إلا المجاهرين» دليل على تحريم المجاهرة بالذنب، وأن المجاهر حقيق بعدم المعافاة من المولى جل في علاه.

ولذا قال المؤلف: «فلو اطلَّعَ الناسُ عليك لا نهتكْتَ» أي: افتضحت.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد روينا أن رجلاً أتى إبراهيم بن أدهم فقال: يا أبا إسحاق، إنني لا أصبرُ عن المعاصي، فقل لي قولاً أنتفعُ به!

قال: نعم. أقولُ لكَ خمسَ خصالٍ، إن قَدِرت عليها لم تضرَّكَ معصيةٌ!

قال: هاتِ.

قال: إن أردت أن تعصيَ الله فلا تأكلْ رزقَهُ!

قال: يا أبا إسحاق فمن أين آكلُ وكل ما في الأرضِ من رزقِ الله ؟!

قال: أَفَيحْسُنُ أن تأكل رزقهُ وتعصيهِ؟

قال: لا. هاتِ الثانية.

قال: وإذا أردت أن تعصيه فلا تسكن بلاده!

قال: «هذه أشدُّ من الأولى ! إذا كانت السماواتُ والأرضُ وما بينهما وما فيهما له فأين أسكن؟

قال: يا هذا، أفيحسنُ أن تأكلَ رزقه وتسكنَ بلاده وتعصيه؟

---

(١) رواه البخاري (٦٠٦٩)

(٢) «شرح صحيح البخاري»(٩/ ٢٦٣) .

قال: لا، هاتِ الثالثة.

قال: فإذا أردتَ أن تعصيه فانظرْ موضعًا لا يراك فاعصهِ فيه.

قال: يا أبا إسحاق، فكيف أصنعُ وما في السماءِ والأرضِ والجبالِ والبحارِ موضعٌ إلا وهو بارزٌ له، يرى ما في قعرِ البحار، وتحت أطباقِ الجبال؟

قال: يا هذا، أفيحسنُ أن تأكلَ رزقه، وتسكن بلادهُ، وتجاهرَه بمعصيته؟

قال: لا، هات الرابعة.

قال: إذا جاءك مَلَكُ الموتِ ليقبضَ روحكَ فقل: أخِّرني حتى أتوبَ.

قال: لا يقبلُ مني.

قال: يا هذا، فإذا كنتَ تعصيه، ولا تأمنُ مفاجأة الموت، ولا يقبلُ منك فيؤخرَك؛ فتموتُ على غير توبة، فكيف يكونُ حالك؟!

قال: هات الخامسة.

قال: إذا جاءتك الزبانيةُ ليأخذوك إلى النار فلا تمضِ معهم.

قال: لا يَدَعونني.

قال: فإذا كنتَ لا تقدرُ على الامتناعِ منهم، ولا تدعُ المعصيةَ، فكيف ترجو الخلاص؟

قال: حسبي.

ولزم إبراهيم، فعبدَ الله حتى مات!»

التعليق:

* في هذه القصة من العبر والعظات.

١) النظر في نعم الله على العبد في نفسه وأهله وماله.

٢) أنه لا ينبغي للعبد أن يعصي الله وهو يأكل من رزقه ويسكن في أرضه وقد أمده عَزَّوَجَلَّ بالصحة والعافية ...إذ كيف يعصي الله وهو يتمتع بنعمه عليه!!

٣) تأنيب النفس والضمير في الإقلاع عن المعاصي والسيئات.

وابراهيم بن أدهم قال عنه ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أحدُ مشاهير العباد، ومن أكابر من له همة عالية من العُبَّاد»[(١)].

قال المؤلف: «وإن ابتليت بمعصية فبادر إلى التوبة، والاستغفار والندم، وابكِ على خطيئتك، فإنك لا تدري على ما أنت منها، كان بعضهم يقول: لا تنظر إلى صغر الخطيئة، ولكن انظر إلى من عصيت!»

التعليق:

* ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا حال الإنسان إذا ابتُلي بمعصية. ماذا يجب عليه؟ فيقال: عليه أن يبادر إلى التوبة، والاستغفار، والندم والبكاء على الخطيئة.

هذه ثلاثة أشياء.

أما التوبة فهي واجبة من جميع الذنوب والمعاصي، وقد أمر الله بها وأمر بها نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

(١) «البداية والنهاية» (١٣/ ٤٩٨).

قال تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾[١]

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾[٢]

وقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه، فإني أتوب في اليوم مائة مرة» رواه مسلم[٣]

والتوبة هي: الرجوع من معصية الله إلى طاعته.

■ **ولها شروط خمسة:**

* **الأول:** الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ بأن يكون قصد الإنسان بتوبته وجه الله والوصول إلى دار كرامته.
* **الثاني:** الندم على ما فعل من المعصية.
* **الثالث:** أن يقلع عن الذنب الذي وقع فيه.
* **الرابع:** العزم على أن لا يعود في المستقبل.
* **الخامس:** أن تكون في زمن تقبل فيه التوبة، وذلك قبل حلول الأجل وبلوغ الروح الحلقوم. وقبل أن تطلع الشمس من مغربها[٤].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وتوبة العبد إلى الله محفوفة بتوبة من الله عليه قبلها، وتوبة منه بعدها، فتوبته بين توبتين من ربه، سابقة ولاحقة، فإنه تاب عليه أولاً إذنا

---

(١) [سورة النور: آية ٣١].

(٢) [سورة التحريم: آية ٨].

(٣) برقم (٢٧٠٢).

(٤) انظر: «شرح رياض الصالحين» لشيخنا ابن عثيمين (١/ ٨٦).

وتوفيقا وإلهاما، فتاب العبد، فتاب الله عليه ثانيا، قبولاً وإثابة»[(١)].

وأما الاستغفار والندم فكذلك

الاستغفار: طلب المغفرة، وهي ستر الذنب والتجاوز عنه مأخوذة من المِغْفَرَ وهو ما يتقي به المقاتل من السهام، ففيه سترٌ ووقاية.

والاستغفار أمر به الملك الغفار، وأكثر منه سيد الأبرار صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو سبب لمغفرة الذنوب والأوزار.

وأما الندم فإنه من مقتضيات التوبة وشروطها كما تقدم، والندم حالة نفسية يحصل للقلب معها انقباض وتحسُّر.

وأما البكاء على الخطيئة فليس بشرط ... قد تتم شروط التوبة ومقتضياتها بدون بكاء.

والبكاء من خشية الله وتحسُّراً على الذنب الذي وقع فيه العبد، لا شك أنه علامة خير للعبد، وقد أثنى الله عَزَّوَجَلَّ على من هذه حالة.

وقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «عَيْنَانِ لَا تَمَسُّهُمَا النَّارُ: عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ الله، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ الله» رواه الترمذي.[(٢)]

وقد قال بعض السلف: إن البكاء من الندم.

وقول البعض الذي نقله المؤلف.

هو قول التابعي الجليل بلال بن سعد الشامي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)].

---

(١) «تهذيب مدارج السالكين» ص (١٧٩).

(٢) «برقم (١٦٣٩) وأشار إلى ضعفه.

(٣) ترجمته في «سير أعلام النبلاء» (٥/ ٩٠)، «البداية والنهاية» (٩/ ٣٤٨)، «تهذيب التهذيب» (١/ ٥٠٣).

وقد أخرجه ابن المبارك في «الزهد»(٧١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٢٢٣)، وابن الجوزي في «العلل المتناهية» (١٢٨٩).

وقد روي مرفوعاً ولا يصح.

ومعناه صحيح.

وهو أن المعصية قبيحة، ومن أعظم الزواجر عن اقترافهما أن تنظر إلى من عصيت وهو الله عَزَّوَجَلَّ بجلاله وكبريائه الذي أمدك بالنعم ودفع عنك الشرور والنقم.

قال المؤلف: «وشكا بعضُ عمال عمر بن عبدالعزيز إليه، فكتب إليه: يا أخي، اذكر سهرَ أهلِ النارِ في النارِ مع خلودِ الأبد، واحذر أن يكون المنصرفُ بك من عند الله إلى النار فيكونَ آخرَ العهدِ ومنقطعَ الرجاء. فلما قرأ الكتاب، طوى البلاد حتى قدم عليه، فقال: ما أقدمك؟

فقال: خلعتَ قلبي بكتابك، لا عملتُ لك ولا لأحدٍ بعدك!

التعليق:

هذه القصة ذكرها الحافظ الذهبي في ترجمة الفضيل بن عياض بن مسعود التميمي من «سير أعلام النبلاء»[(١)].

وفيها: موعظة بليغة وتذكير وتخويف وترهيب.

وفيها: سرعة انقياد هذا العامل ولين قلبه وخوفه وتركه العمل مع أحدٍ خشية أن يقع فيما يغضب الله ويوجب عذاب النار.

---

(١) (٨/ ٤٣٠).

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «واعلم يا أخي أن الخطرَ عظيم، والخطبَ جليلٌ، وأننا قد عُرضنا لأمرٍ لا تقوم له الجبالُ الشوامخِ، ولا الأرضُ العريضة، ولا السماءُ الرفيعة، ولا البحارُ الواسعة، وحَملنا أمراً أشفقت من حملهِ السماواتُ والأرضُ والجبال ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾[1].

التعليق:

* يشير المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى عِظم الأمانة التي حُمِّلناها وهي امتثال الأوامر واجتناب النواهي في حال السر والعلانية، وأنه تعالى عرضها على المخلوقات العظيمة السموات والأرض والجبال عرض تخيير لا تحتيم ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾[2] أي: خوفاً أن لا يقمن بما حملن، لا عصياناً لربهن ولا زهداً في ثوابه سبحانه.

وعرضها الله على الإنسان على ذلك الشرط المذكور فقبلها وحملها مع ظلمِهِ وجهلِهِ، وحمل هذا الحمل الثقيل[3].

وفي هذه الآية دليل على عِظم هذه المسئولية، وأنه ينبغي للإنسان أن يجاهد نفسه في تحمُّلها مستعيناً بربه سبحانه مستحضراً أجره وثوابه مظهراً عجزه وفقره وذله لمولاه وخالقه عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) [سورة الأحزاب: آية ٧٢].

(٢) [سورة الأحزاب: آية ٧٢].

(٣) «انظر»تفسير السعدي» ص (٧٩١).

قال: «وخُلقت لنا النارُ التي لا مثلَ لعذابها، ووعدها الله تعالى أن يملأها منا ومن الجنَّ، فقال تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾[1]».

التعليق:

* النار أجارنا الله منها أعدها الله للكافرين والمنافقين، وقوله «خُلِقت لنا» يعني: لمن انحرف عن الصراط المستقيم واتبع سبيل الكافرين الضالين.

وهي تحذير وتخويف للعباد لئلا يكونوا من أهلها.

وقوله: «لا مثلَ لعذابها» وهو كذلك، فإن حَرها شديد وقعرها بعيد ولا تطيقها أجسام العبيد وقد قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «نَارُكُمْ جُزْءٌ مِن سَبْعِينَ جُزْءًا مِن نَارِ جَهَنَّمَ، قيلَ: يا رَسولَ اللهِ إنْ كَانَتْ لَكَافِيَةً قالَ: فُضِّلَتْ عليهنَّ بتِسْعَةٍ وسِتِّينَ جُزْءًا كُلُّهُنَّ مِثْلُ حَرِّهَا» متفق عليه[2].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وكيف حالُ من تشعلُ النارُ في جسده كله، كلما نضج جلده بُدِّلَ جلداً غيرَه، يُسحب في حميم، قد انتهى حَرُّه على جسده ووجهه. ويُصبُّ من فوق رأسه، فيُصهر به ما في بطنه، ويُنتزع عنه جلدُه، ثم يُسْجَرُ في نار تُشعلُ في جسمه وجلِده ووجهه، ثم لا غايةَ لعذابها، ولا يُفَّتر عنهم، ولا يرجون منها فرجًا. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾[3].

---

(١) [سورة السجدة: آية ١٣].

(٢) «صحيح البخاري» (٣٢٦٥) ومسلم (٢٨٤٣).

(٣) [الزخرف: الآيات ٧٤ - ٧٧].

لا يُرحمون إن بَكوا، ولا يُعذرون إن شَكوا، ولا يُجابون إن دعوا، ولا يُعتبون إن استعتبوا، قال الله تعالى: ﴿فَإِن يَصۡبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثۡوًى لَّهُمۡۖ وَإِن يَسۡتَعۡتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلۡمُعۡتَبِينَ ۝٢٤﴾[1].

التعليق:

هذا الذي ذكره المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان حال أهل النار وهم فيها -أجارنا الله منها- وكل ما ذكره حق، وقد نص الله عَزَّوَجَلَّ عليه في كتابه وأخبر عنه نبيه صلى الله عليه وعلى آله وسلم. ومن أراد الاستزادة في الأحاديث والآثار الواردة في ذلك فليراجع كتاب الحافظ ابن رجب «التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار»، وكتاب الحافظ القرطبي «التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة».

والشاهد من الآية الأولى قوله:

﴿قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ۝٧٧﴾ يعني مقيمون فيها لا يخرجون منها أبداً. فالمكث هنا يراد به الإقامة الدائمة.

والشاهد من الآية الثانية قوله: ﴿وَإِن يَسۡتَعۡتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلۡمُعۡتَبِينَ ۝٢٤﴾.

أي: يطلبوا أن يزال عنهم العتب فيرجعوا إلى الدنيا، ليستأنفوا العمل، فما هم بمعتبين لأنه ذهب وقته، وعمِّروا ما يعمرَّ فيه من تذكّر، وجاءهم النذير، وانقطعت حجتهم، مع أن استعتابهم كذب منهم، فلو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون[2].

---

(١) [سورة فصلت: آية ٢٤].

(٢) «تفسير السعدي» ص (٨٨٥).

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يروى أن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مرَّ بكثيبٍ من الرملِ فقال: مساكين أهلُ النار! لو علموا أنهم إذا لبثوا في جهنمَ عددَ هذا الرمل ثم أُخرجوا منها لكان لهم أملٌ يَمُدُّون بأعناقهم إليه، ولكنهم لا غايةَ لهم.

ومن كان حالُه هكذا فلا يأمنُ على نفسه أن يكون من أهلها؛ فحقُّه أن لا يَفتُرَ من البكاء، ولا يستقرَّ به قرار.

فكن يا أخي على حذرٍ، ولا تأمنْ وأنت معرَّض لهذا الخطر».

التعليق:

الأثر الذي نقله المؤلف عن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ. أورده ابن رجب في «التخويف من النار» ص (٢١٠)، وعزاه لابن أبي الدنيا. بإسناده عن هشام بن حسان فذكره بنحوه.

وفيه موعظة وتذكير واستعداد وتأهُب، وأن الإنسان لا يأمن على نفسه. فينبغي أن يكون دائماً بين خوف ورجاء لا يغلِّب أحدهما فيهلك.

وقوله: «ولا يستقر به قرار» يعني: من خوفه ووجله. ولكن مع ذلك لابد أن يحسن الظن بالله سبحانه مع عمله بالصالحات وحرصه عليها ورجاءه ربه عَزَّوَجَلَّ أن يغفر له وأن يرحمه ويتولاه.

قال: «كان بعضهم يبكي كثيراً، فقيل له في ذلك فقال: والله لو تواعدني ربي أن يسجنني في الحمام لكان حقي أن لا أفتر من البكاء، فكيف وقد تواعدني أن يسجنني في النار إن أنا عصيتُه؟

وكان يزيد الرقاشي كثير البكاء، إذا دخل بيته بكى، وإن خرج بكى، وإن دخلَ المسجد بكى، وإن جلسَ إليه إخوانُه بكى!

فقال له ابنه: يا أَبَهْ، كم تبكي؟! فوالله لو أن النار لم تُخلق إلا لك ما زدت على هذا!

فبكى وقال: ثكلتك أمك يا بُني! وهل خُلقت النارُ إلا لي ولإخواني من الإنس والجن ؟

أما تقرأ يا بني: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ٣٣﴾[1].

أما تقرأ: ﴿يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ وَنُحَاسٞ فَلَا تَنتَصِرَانِ ٣٥﴾[2].

أما تقرأ: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ ٣٧ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٣٨ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُسۡـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٞ وَلَا جَآنّٞ ٣٩ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٤٠ يُعۡرَفُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ بِسِيمَٰهُمۡ فَيُؤۡخَذُ بِٱلنَّوَٰصِي وَٱلۡأَقۡدَامِ ٤١ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٤٢ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٤٣ يَطُوفُونَ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَ حَمِيمٍ ءَانٖ ٤٤﴾[3].

فقام يجول في الدار ويبكي ويصرخ حتى غُشي عليه

فقالت أم الغلام: يا بُني ما أردت إلى هذا من أبيك ؟

قال: والله ما أردت إلا أن أهوّن عليه، ما أردتُ أن أزيد عليه حتى يقتل نفسه!

واعلم يا أخي أن الذي خاف منه أولئك نحن مثلهم فيه، بل نحن أحقُّ به منهم، فما الذي يؤمِّننا دونهم؟

---

(١) [سورة الرحمن: آية ٣٣].

(٢) [سورة الرحمن: آية ٣٥].

(٣) [سورة الرحمن: الآيات ٣٧-٤٤].

التعليق:

ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا حال السلف وخوفهم وبكائهم.

الأثر الأول: عن يزيد بن مرثد أبو عثمان الهمداني الصنعاني من كبار التابعين[(١)].
وقد أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرقة والبكاء» (٢٤٧) بإسناد جيد.

والأثر الثاني: عن يزيد الرقاشي، أبو عمرو البصري، من الزُّهاد والعُبّاد البكاءين..[(٢)] وهو ضعيف في الحديث. مات قبل (١٢٠هـ) والذي وقع منه رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبالغة في الخوف من الله جَلَّ جَلَالُهُ، والاشفاق والوجل من عذابه وأليم عقابه.

والذي ينبغي للمؤمن أن يجمع بين الخوف والرجاء في حال الحياة لا يغلِّب أحدهما على الآخر فيهلك ..

وهذا هو هدي نبينا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

نعم إذا رأى من نفسه إقبالاً على المعاصي وتساهلاً بها فيغلِّب جانب الخوف من الله ليُقلع ويبتعد عنها، كما أنه في ساعة الاحتضار يغلب جانب الرجاء امتثالاً لأمر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قوله: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عَزَّوَجَلَّ». رواه مسلم[(٣)].

ثم نبه المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى أن الذي خاف منه أولئك يعني السلف ينبغي أن نكون مثلهم وأن نستشعر عِظم الموقف بين يدي الله سبحانه.

---

(١) انظر: ترجمته في «تهذيب الكمال» (٣٢/ ٢٣٩).
(٢) انظر: «تهذيب التهذيب» (١١/ ٣١١)، «صفة الصفوة» (٣/ ٢٨٩).
(٣) برقم (٢٨٧٧).

فما الذي يؤمننا دونهم، وهم أقوى إيمانًا ويقينًا وأكثر متابعة منا لأوامر الله ورسوله.

📖 **قال: «واعلم رحمك الله أن حسن الخُلقِ أثقلُ ما يوضعُ في الميزان، وأنه يبلغ بصاحبه درجةَ الصائم القائم».**

التعليق:

* حسن الخلق: هو بذل الندى وكف الأذى وطلاقة الوجه.

وهو من الخصال الحميدة التي حث الشارع عليها ورغَّب فيها.

قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾[1] أي خذ ما تيسر وعفى وتسهل من أخلاق الناس، ولا تطالبهم بما لا تقتضيه طباعهم، ولا تسمح به أخلاقهم، هذا فيما يأتيك منهم.

وأما ما تأتي إليهم فالأمر بالعرف، وهو نصحهم وأمرهم بكل مستحسن شرعًا، وعقلاً وفطرة، وأعرض عمن جهل عليك بقوله أو فعله..[2].

عن أبي الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن»رواه أبو داود والترمذي[3].

وعن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت: «سمعت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم» رواه أبو داود وفي إسناده ضعف[4].

---

(١) [سورة الأعراف: آية ١٩٩].

(٢) «فتح الرحيم الملك العلاَّم» للشيخ ابن سعدي ص (١١٣).

(٣) «سنن أبي داود» (٤٧٩٩)، والترمذي (٢٠٠٢).

(٤) «سنن أبي داود» (٤٧٩٨).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «جماع الخُلق الحسن مع الناس: أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك، وبعض هذا واجب وبعضه مستحب»[(١)].

وقال الشيخ ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فمن اتقى الله، وحقَّق تقواه، وخالق الناس على اختلاف طبقاتهم بالخلق الحسن فقد حاز الخير كله، لأنه قام بحق الله وحقوق عباده، ولأنه كان من المحسنين في عبادة الله، المحسنين إلى عباد الله»[(٢)].

■ **ومن فوائد حسن الخلق:**

- محبة الله عَزَّوَجَلَّ لأنه تعالى يحب المحسنين.
- الاقتداء بالنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واقتفاء أثره.
- محبة الخلق ومودتهم.
- حصول الأجر والثواب المترتب عليه.
- سلامة الصدر وراحة البال.

📖 **قال: «وأن من وَصَلَ رَحِمَهُ وصَلَهُ الله، ومن قَطَعها قطعه الله.**

وأن أفضل الأعمال الصلاةُ لمواقيتها.

ثم برُّ الوالدين.

ثم الجهاد في سبيل الله».

---

(١) «الوصية الصغرى» ص (١٦٥) مع شرحها.

(٢) «بهجة قلوب الأبرار» (٢/ ٤٢).

التعليق:

الرحم هم القرابة، الأقارب الذين يجتمع بهم الإنسان في الجد الرابع، هؤلاء تجب صلتهم، وكل من كان أقرب كانت صلته أوجب.

والصلة تكون بما جرت به العادة، وتختلف باختلاف البلدان.

قال شيخنا ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والذي ينبغي لواصل الرحم أن ينتبه لأمر مهم وهو أن يقصد بصلة رحمه التقرب إلى الله تعالى بثوابه الذي جعله عَزَّوَجَلَّ لمن وصل الرحم، فإن الله تعالى تكفَّل لمن وصل رحمه أن يصله الله، وحذَّر من قطعها بأن من قطع رحمه قطعه الله».

ثم ذكر مراتب الأعمال الصالحة وقد وردت في حديث عبدالله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أخرجاه في «الصحيحين»(١).

والصلاة على وقتها يعني المبادرة بها والمحافظة عليها في وقتها.

وبرُّ الوالدين بالإحسان والعطف والحنان وبذل وجوه الخير إليهما.

والجهاد في سبيل الله وهو ذروة سنام الإسلام، قتال الكفار لإعلاء كلمة الله جل في علاه ...

قال: «وأن أوثق عرى الإيمان الحبُّ في الله والبغض في الله.

وأن الصبرَ من الإيمانِ بمنزلة الرأسِ من الجسد».

التعليق:

أوثق عرى الإيمان: أي أعظمها وأقواها وأفضلها الحب في الله والبغض في

(١) في حديث عن أبي هريرة مرفوعاً رواه البخاري (٥٩٨٨)، ومسلم (٢٥٥٤).

الله: يعني أن تحب العبد لا تحبه إلا لله، وأن تبغض العبد لا تبغضه إلا لله.

وقد ورد حديث بهذا اللفظ عن البراء بن عازب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: كنا جلوساً عند النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «أيُّ عرى الإسلام أوثق؟ قالوا: الصلاة..» وفيه: «إن أوثق عرى الإيمان أن تحب في الله، وتبغض في الله» رواه أحمد وغيره بإسناد ضعيف، وله شواهد يتقوى بها [(١)].

وقد قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: «ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه» متفق عليه[(٢)] وهذا يدل على أنه من المهمات وأنه من الأمور المطلوبة التي يثاب عليه العبد.

وقوله: «وأن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد» هذه مقولة رويت عن علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[(٣)].

---

(١) «مسند أحمد» (١٨٥٢٤)، وأخرجه الطيالسي (٧٨٣)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٠٤٢٠)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٣) من طريق ليث بن أبي سليم، عن عمرو بن مرة، عن معاوية بن سويد، عن البراء فذكره . وفي إسناده ليث بن أبي سليم وهو ضعيف، قال ابن حجر: «صدوق اختلط جداً ولم يتميز حديثه فتُرك». «التقريب» ص(٨١٧) . وله شاهد من حديث ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.
أخرجه الطيالسي (٣٧٦)، وابن أبي شيبة (١٠٤٤٣)، والحاكم (٣٧٩٠) وهو حديث منكر، قاله أبو حاتم كما في «العلل» لابن أبي حاتم (١٩٧٧) وله شواهد أخرى عن جماعة من الصحابة، ساقها الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «السلسلة الصحيحة» (٩٩٨)، (١٧٢٨).

(٢) «صحيح البخاري» (٦٦٠)، و«مسلم»(١٠٣١) .

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الصبر والثواب عليه» (٨) من طريق السري بن إسماعيل، عن الشعبي، عن مسروق، عن علي فذكره. وإسناده ضعيف جداً، السري بن إسماعيل متروك الحديث، كما في «التقريب» ص (٣٦٧). وأخرجه ابن أبي شيبة في « الإيمان» (١٣٠) من طريق عمرو بن قيس، عن أبي إسحاق.
واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (١٥٦٩) من طريق ميمون بن مهران، ووكيع بن الجراح في «الزهد» (١٩٩) من طريق محمد بن علي، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٧٥- ٧٦) =

ومعناها صحيح، فإن الصبر ذو منزلة عالية من الدين.

قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الطُّهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن - أو تملأ - ما بين السماء والأرض، والصلاة نورٌ، والصدقة برهانٌ، والصبر ضياءٌ، والقرآن حجةٌ لك أو عليك، كل الناس يغدو، فبائعٌ نفسه فمعتقها أو موبقها» رواه مسلم(١).

ووصف الصبر بالضياء يعني أنه يضيء للإنسان عندما تحتلك الظلمات وتشتد الكربات، فإذا صبر فإن هذا الصبر يكون له ضياء يهديه إلى الحق(٢).

وعن صهيب بن سنان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «عجبًا لأمرِ المؤمنِ إنَّ أمرَه كلَّهُ خيرٌ، وليس ذلك لأحدٍ إلا للمؤمنِ، إن أصابتْهُ سرَّاءُ شكر فكان خيرًا لهُ، وإن أصابتْهُ ضرَّاءُ صبرَ فكان خيرًا له» رواه مسلم (٣).

وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «ما أُعطي أحدٌ عطاء خيرٌ وأوسع من الصبر»متفق عليه(٤).

والصبر ثلاثة أقسام: صبرٌ على طاعة الله، وصبرٌ عن معصية الله، وصبرٌ على أقدار الله المؤلمة.

= من طريق أبي الزعْل، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (٥٤٧) من طريق عكرمة.
خمستهم عن علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وطرقه كلها لا تخلو من مقال، لكن يشد بعضها بعضاً ويكون بها له أصل عنه موقوفاً. وقد روي مرفوعاً ولا يصح .

(١) برقم (٢٢٣) .

(٢) «شرح رياض الصالحين» (١/ ١٨٧) .

(٣) برقم (٢٩٩٩) .

(٤) «صحيح البخاري» (١٤٦٩)، ومسلم (١٠٥٣) .

أما الصبر على طاعة الله: فأن يجاهد الإنسان نفسه ويحبسها على طاعة الله عَزَّوَجَلَّ بفعل أوامره وعدم الإخلال بشيء منها، يفعلها مستحضراً نية التعبد لله وامتثال أمره والاقتداء برسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، غير كاره لها أو مستثقل لشيء منها.

وهذا الصبر هو أفضل وأعلى الأنواع وأكملها.

وأما الصبر عن معصية الله: فأن يحبس الإنسان نفسه عن مواقعة الذنوب والسيئات والخطايا والموبقات يبتغي بذلك مرضاة رب الأرض والسماوات.

وأما الصبر على أقدار الله المؤلمة: فأن يحبس الإنسان نفسه عن الجزع والتسخُّط عند وقوع المصيبة، لا يُظهر التسخُّط بيده ولا بلسانه ولا بقلبه، بل يصبر ويحتسب ويعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطاه لم يكن ليصيبه[(١)].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وملاكُ الأمر الدعاءُ، فإن الأمرَ كلَّه بيد الله، يهدي من يشاء ويستعمله، ويضلُّ من يشاء ويخذله. فينبغي لك أن ترغب إلى من الأمر بيده، وتفوّض أمرك إليه».

التعليق:

الدعاء سلاح المؤمنين، وهو الصلة بينهم وبين ربهم رب العالمين، قال الله تعالى: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ۝٥٥﴾[(٢)].

وقال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ۝١٨٦﴾[(٣)].

---

(١) وانظر للتوسع في مسائل الصبر كتاب «عدة الصابرين» لابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ.
(٢) [سورة الأعراف: آية ٥٥].
(٣) [سورة البقرة: آية ١٨٦].

وقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «الدعاء هو العبادة» رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه بإسناد صحيح(١).

ومن فُتح له باب الدعاء فقد فتح له كل خير.

قال عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «إني لا أحمل هم الإجابة، ولكن أحمل هم الدعاء، فإذا جاء الدعاء فالإجابة معه»(٢).

وقول المصنف: «فينبغي لك أن ترغب إلى من الأمر بيده، وتُفوِّض أمرك إليه» هذا حق، الرغبة إلى الله وتفويض الأمر إليه عَزَّوَجَلَّ، لأن الأمر كله بيده .. وقد ذكر الله عَزَّوَجَلَّ ذلك في سورة الفاتحة في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾(٣) أي: دُلنا وأرشدنا ووفقنا وثبّتنا على الصراط المستقيم، ففيها الرغبة ... وتفويض الأمر إليه سبحانه.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وليكن دعاؤك بخضوعٍ وخشوعٍ وبكاءٍ وتضرُّع، فإن بعضهم قال: إني لأعلمُ حين يستجيبُ لي ربي عزَّ وجلَّ: إذا وَجَلَ قلبي، واقشعرَّ جلدي، وفاضتْ عيناي، وفُتح لي في الدعاء».

ذكر المؤلف هنا بعض الآداب التي ينبغي أن يعتني بها الداعي:

وهي: أن يكون دعاؤه بخضوع وخشوع.

الخضوع في البدن، والخشوع في القلب، بأن يخضع بدنه لله عند دعائه ذلاً

---

(١) «سنن أبي داود» (١٤٧٩)، والترمذي (٢٩٦٩)، وابن ماجه (٣٨٢٨) قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».

(٢) «الجواب الكافي» لابن القيم ص (١٦) .

(٣) [سورة الفاتحة: الآيات ٥-٦].

وانكساراً بين يديه سبحانه. ويخشع قلبه ويلين لله عَزَّوَجَلَّ وكذا جميع جوارحه من بصره ولسانه.

وبكاء يعني: ينبغي أن يبكي عند دعائه لأن البكاء يدل على الخشوع والتذلل لله.

وفي هذا نظر، فإن البكاء ليس بلازم وليس هو من آداب الدعاء، ولم يرد عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه كلما دعا بكى.

نعم البكاء من آثار الخشوع في الدعاء والخضوع، إذا خشع قلب الداعي دمعت عينه ولان قلبه ورقَّت جوارحه، لكنه ليس بلازم.

وقد ورد عن السلف والصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ ما يدل على بكائهم عند الدعاء .. وتضرعهم لربهم جَلَّ جَلَالُهُ.

وتضرع: يعني أن يكون دعاؤه بتضرُّع وتذلل.

وينبغي أن يكون باستحضار، يستحضر أنه يتعبد لله عَزَّوَجَلَّ بذلك لأن الدعاء عباده.

قال الأوزاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يقال: أفضل الدعاء الإلحاح على الله والتضرُّع إليه»[(١)].

قال الشيخ ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن كان قصده في دعائه التقرب إلى الله بالدعاء، وحصول مطلوبه؛ فهو أكمل بكثير ممن لا يقصد إلا حصول مطلوبه فقط، كحال أكثر الناس».

وقوله: «فإن بعضهم قال ..» هذا البعض هو ثابت البُنَانِي الحافظ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)] وما ذكره فهو علامة على استجابة الدعاء، لكنها ليست بلازمة فقد تحصل الإجابة

(١) «التمهيد» (٥/ ٣٤٦).

(٢) «صفة الصفوة» لابن الجوزي (٢/ ١٥٤). وله ترجمه حافله في «سير أعلام النبلاء» (٦/ ٥٢).

بدون الصفات والأحوال التي ذكر...

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قالت أم الدرداء لشهر بن حوشب: أما تجد قشعريرة؟ قال: بلى . قالت: فادعُ عندها، فإن الدعاء يُستجاب عند ذلك».

التعليق:

هذا الأثر: أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٣٨٧) رقم (١٥٦٩١) من طريق سفيان الثوري، عن عبدالله بن عثمان بن خثيم، عن شهر بن حوشب، عن أبي الدرداء – وليس أم الدرداء – في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[(١)]، قال: الوجل في القلب كإحراق السّعفة، أما تجد له قشعريرة؟ قال: بلى! قال: إذا وجدت ذلك في القلب فادع الله، فإن الدعاء يذهب بذلك».

وإسناده ضعيف، لانقطاعه فإن شهر بن حوشب لم يسمع من أبي الدرداء[(٢)].

وأم الدرداء هي: هُجيمة بنت حيَي الأوصابية، وهي زوج أبي الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، روت عن جماعة من الصحابة، وكانت فقيهة عابدة[(٣)] قال البخاري في «صحيحه»: «باب سنة الجلوس في التشهد، وكانت أم الدرداء تجلس جلسة الرجل وكانت فقيهة»[(٤)].

وما ذكره لم يرد عليه دليل وليس بلازم.

والدعاء ليس مقصوراً على القشعريرة، بل يدعو الإنسان ربه على كل حال،

(١) [سورة الأنفال: الآية ٢].
(٢) «جامع التحصيل» ص (٢٤٠).
(٣) انظر: «تهذيب الكمال» (٣٥/ ٣٥٢).
(٤) «صحيح البخاري» باب سنة الجلوس في التشهد.

والقشعريرة حالة تعتري بدن الإنسان يشعر معها بالخوف والخشوع والوجل للهِ عَزَّوَجَلَّ.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وعن أبي الجلَد قال: أوحىَ الله إلى موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: يا موسى، إذا ذكرتني فاذكرني وأعضاؤك تنتفض، وإذا دعوتني فاجعلْ لسانَك من وراء قلبك، وإذا قمت بين يديَّ فقم مقام الذليل الحقير، وذُمَّ نفسَك فهي أولى بالذمّ، وناجِ حين تناجيني بقلبٍ وجلٍ، ولسانٍ صادق».

التعليق:

هذا الأثر أخرجه بنحوه أبو نعيم في «حلية الأولياء»(٦/ ٥٥). وإسناده ضعيف وأبو الجلد هو: جيلان بن فروة الأسدي البصري، وصفه أبو نعيم بقوله: «كان للكتب المنزلة حافظًا، وبمواعظ الأنبياء وأحوالهم واعظًا، وبالأذكار لهجًا لافظًا»[(١)].

وفيه دليل على أنه ينبغي حضور القلب عند الدعاء فهو أدعى للاستجابة، وهو من آداب الدعاء المؤكدة، بل قال الحافظ ابن رجب «إنه من أعظم شرائطه»[(٢)].

روي في الحديث: «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاءً من قلب غافل لاهٍ»[(٣)].

غافل أي: معرض عن دعائه فهو يدعو ويرفع يديه لكن قلبه معرض.

ولاه أي: ساه لا يحس.

---

(١) «حلية الأولياء» (٦/ ٥٤).

(٢) «جامع العلوم والحكم» ص (٤٠٣).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٤٧٩) وإسناده ضعيف.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وفوِّض أمرك إلى الله تعالى، واستطرح بين يديه، وأشعر قلبك أنه لا ينالُك من الرزق والخير إلا ما كتبه الله لك ولو اجتهدت فيه بحيلةِ السماوات والأرض، ولا يجري عليك ما تكرهه إلا ما كتبه الله عليك ولو اجتمع عليك من في السماوات والأرض، فإن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطاك لم يكن ليصيبك».

التعليق:

هذه إرشادات وتوجيهات قيمة، وهي مستنبطة من قول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لابن عباس: «يا غلام احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيءٍ لم ينفعوك إلا بشيءٍ قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيءٍ لم يضروك إلا بشيءٍ قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام، وجفَّت الصحف».

وفي رواية: «واعلم أن ما أخطاك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك»(١).

قوله: «فوّض أمرك إلى الله» أي: توكَّل عليه والجأ إليه، واستطرح بين يديه بإظهار الذل والافتقار والعبودية له سبحانه، ومتى أشعرت قلبك بأنه لن ينالك من الرزق والخير إلا ما كتبه الله لك انشرح صدرك وقنعت برزق الله وما يسوقه لك من الخير، ولم تتطلَّع لما في أيدي المخلوقين وبذلك تفلح وتنجح، قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وقنعه الله بما آتاه» رواه مسلم(٢).

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٦) وقال: «حسن صحيح».

(٢) رقم (١٠٥٤)

قال الشيخ ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وذلك أن هذه الثلاث جمعت خير الدين والدنيا، فإن العبد إذا هُدي للإسلام الذي هو دين الله الذي لا يقبل دينًا سواه، وهو مدار الفوز بالثواب والنجاة من العقاب، وحصل له الرزق الذي يكفيه ويكف وجهه عن سؤال الخلق، ثم تمَّ الله عليه النعمة بأن قنعه بما آتاه أي حصل له الرضا بما أُوتي من الرزق والكفاف، ولم تطمع نفسه لما وراء ذلك، فقد حصل له حسنة الدنيا والآخرة»(١).

وقوله: «ولو اجتهدت فيه بحيلة السماوات والأرض» يعني: لو اجتهدت فيه بكل حيلة، وبكل وسيلة في السماوات والأرض لن تحصل عليه ما دام أن الله لم يكتبه لك.

«ولا يجري عليك ما تكرهه إلا ما كتبه الله عليك ولو اجتمع عليك من في السماوات والأرض».

وهذا معنى قوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك».

والمعنى أن الخلق كلهم لن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك، لأنهم لا يملكون ذلك، فلا يملكون إيصال الضرر والأذى بك؛ فهم أضعف من ذلك، فدل على أن الأمر كله لله، فسلِّم أمرك إليه وتوكل عليه.

«فإن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطاك لم يكن ليصيبك».

والمعنى: أن ما يصيب العبد من نفع وضر فهو مُقدّر عليه، وما كتب عليه فإنه لا يخطئه.

---

(١) «بهجة قلوب الأبرار» من مجموع مؤلفات الشيخ (٥/ ١٧٦).

وهذا يوجب للعبد توحيد الله عَزَّوَجَلَّ وإفراده بالاستعانة والسؤال والتضرع والابتهال، وإفراده بالطاعة والعبادة.

قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا﴾[1].

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾[2].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «واعلم أن من هو في البحر على لوحٍ ليس هو بأحوجَ إلى الله تعالى وإلى لطفه ممن هو في بيته وبين أهله وماله، فإن الأسباب التي ظهرت له بيد الله تعالى، كما أن أسبابَ نجاةِ هذا الغريق بيده».

التعليق:

هذا حق، فإن الجميع مفتقرٌ إلى الله عَزَّوَجَلَّ ولا غنى به عن ربه طرفة عين، يستوي في ذلك من هو في لجج البحر ويخاف على نفسه من الغرق، ومن هو بين أهله وماله آمنٌ مطمئن.

قال: «فإذا حقَّقت هذا في قلبك فاعتمد على الله تعالى اعتماد الغريق الذي لا يعلم له سببَ نجاةٍ غيرَ الله تعالى».

التعليق:

يعني: إذا حققت أن الأسباب كلها بيد الله وأنه سبحانه هو المتصرف وهو المدبِّر، فاعتمد عليه ولا تلتفت إلى غيره.

واسأله بقلب حاضر أن يعينك ويسددك.

---

(١) [سورة التوبة: آية ٥١].

(٢) [سورة الحديد: آية ٢٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تأملتُ أنفع الدعاء فإذا هو سؤال العون على مرضاته، ثم رأيته في الفاتحة في: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾[1].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والاستعانة تجمع أصلين: الثقة بالله، والاعتماد عليه، فإن العبد قد يثق بالواحد من الناس، ولا يعتمد عليه في أموره - مع ثقته به - لاستغنائه عنه، وقد يعتمد عليه - مع عدم ثقته به - لحاجته إليه، ولعدم من يقوم مقامه، فيحتاج إلى اعتماده عليه، مع أنه غير واثق به»[2].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وعليك بالورع واجتناب الشبهات، فإن من واقعَ الشبهات أوشك أن يقعَ في الحرام، فإن من رتع حول الحمى أوشك أن يقع فيه».

التعليق:

الورع هو: ترك ما قد يضر في الآخرة، وهو ترك المحرمات والشبهات التي لا يستلزم تركها ترك ما فعله أرجح منها كالوجبات[3].

والشبهات هي الأمور المشتبهة التي يخفى حكمها على كثير من الناس.

فإن من وقع في الشبهات أوشك أن يقع في الحرام إما لكثرة تعاطيه الشبهات يصادف الحرام وإن لم يتعمده، وإما أن يعتاد التساهل ويتمرن عليه شبهة ثم شبهة حتى يقع في الحرام عمداً.

فإن من رتع حول الحمى أوشك أن يقع فيه، لأن من أقترب من الشيء أوشك أن يقع فيه ولابد.

---

(١) المستدرك على مجموع الفتاوى (١/ ١٧٥).

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ٧٨).

(٣) «مجموع الفتاوى» لشيخ الاسلام ابن تيمية (١٠/ ٢١).

وقد بين صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا مفصّلاً في حديث النعمان بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ حيث قال: « إِنَّ الْحَلَالَ بَيِّنٌ، و إِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ، وبَيْنَهُمَا أمورٌ مُشْتَبِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ فَقَدِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ، وعِرْضِهِ، ومَنْ وقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وقَعَ فِي الْحَرَامِ، كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى، يُوشِكُ أَنْ يَرتع فِيهِ، أَلَا وإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلَا وإِنَّ حِمَى اللهِ مَحَارِمُهُ، أَلَا وإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلُحَتْ صَلُحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وهِيَ الْقَلْبُ» رواه البخاري ومسلم[1].

وجعل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المحرمات مثل الحمى الذي تحميه الملوك لأنفسهم، أو لمواشي المسلمين، لأن من اقترب منها بمواشيه، يوشك أن يقع فيها، فكذلك من وقع في الشبهات كأنه يقرب وقوعه في المحرمات.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وعليك بالليل فاخْلُ فيه بربِّك، واطلب منه حوائجك، وتَضرَّع إليه، واخضع بين يديه، فإنه يروى أن رجلاً قال: أتيت بِشْراً فقال: ما جاء بك؟ قلت: مسألة . قال: ما هي؟ قلت: رجلٌ عليه دَيْن كثير لا سبيل له إلى قضائه. فقال: عليك بجوف الليل.**

فأتيتُ أبا عبد الله أحمد بن حنبل، فسألته، فقال: عليك بجوف الليل.

قال: فدلاّني جميعًا عليه».

التعليق:

الخلوة بمناجاة الله عَزَّوَجَلَّ في جوف الليل دأب الأنبياء والمرسلين وعباد الله الصالحين، وفيه من الأُنس والإنشراح والتضرع ما لا يخفى على من جرَّبه.

---

(١) «صحيح البخاري» (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

وسيبسط المؤلف الكلام فيما يتعلق بجوف الليل في آخر هذه الوصية لأهميته ... ويأتي التعليق عليه هناك.

ومراده بذكر هذا المقطع القصة التي أوردها ...

وهي قصة الرجل الذي عليه دين كثير فسأل بشراً – يعني ابن الحارث الحافي ت (٢٢٧ هـ) [(١)] والإمام أحمد، وكلاهما دلاّه على جوف الليل.

يعني: الزم جوف الليل وأكثر من التضرع وسؤال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وسيعينك.

وهذه القصة أوردها القاضي أبو يعلى ابن الفراء في كتاب «التوكل»[(٢)] وفيها دليل على أهمية التضرع في آخر الليل ولا سيما لمن لزمه دين وأعجزه وفاؤه.

قال: «وإذا سألت الله فاسأله وأنت موقنٌ بأنه مطلعٌ عليك، ناظرٌ إليك، سامعٌ لدعائك، قريبٌ منك، قادرٌ على إجابتك، لا يتعاظمه شيء».

التعليق:

استحضار هذه المعاني الجليلة عند الدعاء من أسباب إجابة الدعاء.

يعني: أن الله معك ومطَّلع عليك وسامع لدعائك وقريب منك، وهو سبحانه قادرٌ على إجابتك لا يتعاظمه شيء.

وقد روي: «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة»[(٣)].

---

(١) انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء» (١٠/ ٤٦٩)، و«البداية والنهاية» (١٤/ ٢٨٩).

(٢) ص (٦٤) وفيه أن الرجل هو موسى بن عيسى الموصلي.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٤٧٩) وهو حديث منكر، تفرد به صالح بن بشير المري، وهو منكر الحديث «الميزان» (٢/ ٢٢٨٩).

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن أعظم شرائطه - يعني الدعاء - حضور القلب ورجاء الإجابة من الله تعالى»[(١)].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وإذا جُمِعَ مَعَ الدُّعاءِ حُضُورَ القلبِ وجَمْعِيَّتَهُ بكُلِّيَّتِهِ على المطلُوبِ، وصادفَ وَقتًا من أوقاتِ الإجابةِ السِّتَّةِ، وهيَ:

الثُّلُثُ الأخيرُ منَ الليلِ، وعندَ الأذانِ، وبينَ الأذانِ والإقامةِ، وأدبارُ الصَّلَوَاتِ المكتُوبة، وعندَ صُعُودِ الإمامِ يومَ الجُمُعَةِ على المنبَرِ حتى تُقضَى الصلاةُ من ذلكَ اليومِ، وآخِرُ ساعةٍ بعدَ العصرِ.

وصادفَ خُشُوعًا في القلبِ، وانكساراً بينَ يَدَيِ الرَّبِّ، وذُلاًّ لَهُ، وتَضَرُّعًا، ورِقَّةً، واسْتَقْبَلَ الدَّاعِيَ القِبْلَةَ، وكانَ على طَهَارَةٍ، ورَفَعَ يَدَيْهِ إلى اللهِ، وبَدَأَ بحمدِ اللهِ والثناءِ عليهِ، ثُمَّ ثنَّى بالصلاةِ على محمدٍ عبدِهِ ورسولِهِ، ثُمَّ قَدَّمَ بينَ يَدَيْ حاجتِهِ التوبةَ والاستغفارَ، ثُمَّ دَخَلَ على اللهِ، وأَلَحَّ عليهِ في المسألَةِ، وتَمَلَّقَهُ ودَعَاهُ رَغْبَةً ورَهْبَةً، وتَوَسَّلَ إليهِ بأسمائِهِ وصفاتِهِ وتوحيدِهِ، وقَدَّمَ بينَ يَدَيْ دُعائِهِ صدَقَةً، فإنَّ هذا الدُّعاءَ لا يكادُ يُرَدُّ أبداً، ولا سِيَّمَا إنْ صَادَفَ الأدعِيَةَ التي أخبرَ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنها مَظِنَّةُ الإجابَةِ، أوْ أنها مُتَضَمِّنَةٌ للاسمِ الأعظَمِ»أ. هـ.[(٢)]

وكلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ مشتمل على ذكر جملة من الشروط المهمة والآداب العظيمة التي لا يكاد يُرد الدعاء حال توفرها، ويمكن تلخيص هذه الآداب في الأمور التالية:

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٤٠٣).

(٢) «الجواب الكافي» ص (٩).

* الأولى: حُضُورَ القلبِ وجَمْعِيَّتَهُ بكُلِّيَّتِهِ على المطلُوبِ.
* الثاني: تحري أوقات الإجابة.
* الثالث: أن يكون عن خشوع في القلب وتذلل وتضرُّع ورِقّة وانكسار بين يدي الرب عَزَّوَجَلَّ.
* الرابع: أن يستقبل الداعي القبلة.
* الخامس: أن يكون على طهارة.
* السادس: أن يرفع يديه عند الدعاء.
* السابع: أن يبدأ دعاءه بحمد الله وحسن الثناء عليه، ثم يثني بالصلاة والسلام على عبده ورسوله محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.
* الثامن: أن يُقدِّم بين يدي حاجته وطلبه التوبة والاستغفار.
* التاسع: أن يُلِح على الله ويتملّقه ويكثر من مناجاته.
* العاشر: أن يجمع في دعائه بين الرغبة والرهبة.
* الحادي عشر: أن يتوسل إلى الله بأسمائه الحسنى وصفاته العليا وتوحيده.
* الثاني عشر: أن يقِّدم بين يدي دعائه صدقه.
* الثالث عشر: أن يتخيَّر الأدعية الجامعة التي أخبر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنها مظِنة الإجابة، أو أنها متضمنة لاسم الله الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى.

فإذا جمع المسلمُ في دعائه هذه الأمورَ العظيمةَ، فإن دعاءَه لا يكاد يُردُّ أبداً ويضاف إلى ذلك: إذا خلا من الموانع، وهي أكل الحرام واستعجال الإجابة والدعاء بإثم أو قطيعة رحم.

بقي أمر آخر نبَّه عليه أهل العلم وهو من الأهمية بمكان، وهو أن الداعيَ ينبغي له مع قيامه بالدعاء مستوفياً لشروطه وآدابه أن يستتبع ذلك القيامَ بلوازم الدعاء ومُتَمِّماته، وذلك بالسعي والجدِّ والاجتهاد في نيل المطلوب فسؤال الله الهدايةَ يستدعي فِعلَ جميعِ الأسبابِ التي تُدركُ بها الهدايةُ؛ العلميةُ والعمليةُ، وسؤالُ الله الرحمةَ والمغفرةَ يقتضي مع ذلك فعل الممكن من الأسباب التي تُنال بها الرحمة والمغفرة، وهي معروفة في الكتاب والسنة، وإذا قال الداعي: اللَّهمَّ أَصلِح لي ديني الذي هو عِصمةُ أمري، وأَصلِح لي دنياي التي فيها معاشي، إلى آخره يقتضي في هذا الطلب والالتجاء إلى الله أن يَسعى العبدُ في إصلاح دينه بمعرفة الحقِّ واتِّباعه، ومعرفة الباطل واجتنابه، ودفع فتن الشبهات والشهوات، ويقتضي أن يسعى ويقومَ بالأسباب التي تَصلُحُ بها دنياه، وهي متنوعةٌ بحسب أحوال الخلق، وإذا قال الداعي: ﴿رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ إِنِّي تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ١٥﴾[1]، فمع هذا التضرُّع إلى الله يسعى في شكر نعم الله عليه وعلى والديه اعترافاً وثناءً وحمداً واستعانةً بها على طاعته، وتعرَّف الأعمال الصالحة التي ترضي الله والعمل بها، والسعي في تربية الذرية تربية صالحة دينية، وهكذا جميع الأدعية صريحة في الاتكال والتضرع إلى الله والالتجاء إليه في حصول المطالب المتنوعة، وصريحة في الاجتهاد في فعل كلِّ سبب ينال به ذلك المقصود، فإنَّ

(١) [سورة الأحقاف: الآية ١٥].

الله تعالى جعل المطالبَ كلَّها أسبابًا بها تنال، وأمرَ بفعلها مع قوة الاعتماد على الله، والدعاء يعبر عن قوة الاعتماد على الله، ولهذا كان روحُ العبادة ومُخَّها، وإذا سأل العبدُ ربَّه أن يتوفَّاه مسلمًا، وأن يتوفاه مع الأبرار كان سؤالاً لحُسن الخاتمة، ويستدعي فعل الأسباب والتوفيق للأسباب التي تنال بها الوفاة على الإسلام، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾[1]، وذلك بفعل الأسباب والاعتماد على مسبِّبها وهو الله وحده الذي بيده أَزِمَّة الأمور.

قال: «وإذا سألته أمراً فاسأله الخيرةَ فيه، فإنك لا تدري ما يكون لك فيه. وإذا شاء الله تعالى أعطاك رغبتك وخارَ لك في ذلك، فيجمعُ لك بين الأمرين».

التعليق:

مراده رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذا ترددت في أمر ما ولم تعلم الخيرة فيه فاسأل الله عَزَّوَجَلَّ الخيرة لك، وهذه تكون في الاستخارة ... وسيأتي الكلام عنها والإشارة إلى شيء من أحكامها عند ذكر المؤلف لها.

أما الدعاء المطلق فإن الإنسان يعزم ويجزم فيه بل ولا يستثني.

لقول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إذا دعا أحدكم فليعزم في الدعاء، ولا يقل: اللهم إن شئت فأعطني، فإن الله لا مستكره له». متفق عليه[2]

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإن لم يعجِّل لك الإجابة فلا تيأس من الإجابة، ولا تملَّ من السؤال، فقد روي أن بعضهم قال: لقد خارَ الله لعبدٍ في حاجةٍ أكثرَ فيها تضرُّعه».

---

(١) [آل عمران: آية ١٠٢].

(٢) «صحيح البخاري» (٦٣٣٨) و«مسلم» (٢٦٧٨).

التعليق:

هذا أدب من آداب الدعاء العظيمة وهي: ألا يستبطئ الإجابة ولا يمل ويترك الدعاء، فإنه بذلك يقع في اليأس من روح الله، والقنوط من رحمته سبحانه، وقد ورد عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النهي عن استعجال الإجابة وأن ذلك من موانع إجابة الدعاء وعدم قبوله.

فعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «يُسْتجَابُ لأَحَدِكُم مَا لَم يعْجلْ: يقُول: دَعوتُ، فَلم يسْتَجبْ لِي» متفق عليه(١).

وفي لفظ مسلم: «لا يزَالُ يُسْتَجَابُ لِلعَبْدِ مَا لَم يدعُ بِإِثمٍ، أَوْ قَطِيعةِ رَحِمٍ، مَا لَمْ يَسْتعْجِلْ، قِيلَ: يَا رسُولَ اللهِ مَا الاسْتِعْجَالُ؟ قَالَ: يَقُولُ: قَدْ دعَوْتُ، وَقَدْ دَعَوْتُ فَلَم أَرَ يَسْتَجِيبُ لي، فَيَسْتَحْسِرُ عِنْد ذَلِكَ، ويَدَعُ الدُّعَاءَ»(٢).

قال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وفي هذا الحديث أدبٌ من آداب الدعاء، وهو أنه يُلازم الطلب ولا ييأس من الإجابة، لما في ذلك من الانقياد والاستسلام وإظهار الافتقار، حتى قال بعض السلف: لأنا أشدُّ خشية أن أُحرم الدعاء من أن أُحرم الإجابة، وقال الداودي: «يُخشى على من خالف وقال: قد دعوت فلم يستجب لي أن يحرم الإجابة وما قام مقامها من الادخار والتكفير»(٣).

قال شيخنا ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وربما يكون عدم سرعة الإجابة من نعمة الله عليك، من أجل أن تُكثر من الدعاء، وكلما أكثرت من الدعاء ازددت رفعة

(١) «صحيح البخاري» (٦٣٤٠)، و«مسلم» (٢٧٣٥) واللفظ له.
(٢) «صحيح مسلم» (٢٧٣٥).
(٣) «فتح الباري» (١١/ ١٤١).

عند الله، لأن الدعاء عبادة، وفي النهاية سوف يستجيب الله لك»[١].

فالخلاصة أنه ينبغي إذا لم يعجل الله لك الإجابة ألا تيأس ولا تمل بل تستمر وتُكثر وأبشر.

وروي عن بعضهم أنه قال: لقد خار الله لعبدٍ في حاجة أكثر فيها تضرُّعه.

يعني: أن الخيرة فيما اختاره الله لعبده حيث فتح له باب الدعاء والتضُّرع في حاجة أكثر فيها سؤاله سبحانه.

📖 **قال: «واعلم أن الله تعالى إذا نظر إليك وعلم أنك قد جعلته معتمدك وملجأك، وأفردته بحوائجك دون خلقه؛ أعطاك أفضل ما سألته، وأكرمك بأكثر مما أردته».**

التعليق:

صدق رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فإن الله عَزَّوَجَلَّ عند حسن ظن عبده به فمتى علم من عبده صدق نيتهِ وحُسنَ قصده رفعَه وأعانه وزاده من فضله.

📖 **قال: «فإن عجَّل لك الإجابة فقد جمع لك بين قضاء الحاجة وخيرِ الدنيا والآخرة، وإن لم يُجبك عاجلاً فقد عوَّضك عن ذلك خيراً منه. فأنت على خيرٍ في الحالتين».**

التعليق:

يعني أن: الداعي على خير ولن يعدم من ربه خيراً على كل حال سواء أُجيب

(١) «التعليق على صحيح البخاري» (١٤/ ٩٧).

أم لم يجب، فإنه بدعائه يتعبد لله عَزَّوَجَلَّ بذلك، وهو دائر بين أُمور ثلاثة ذكرها النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَدْعُو بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا إِثْمٌ، وَلَا قَطِيعَةُ رَحِمٍ، إِلَّا أَعْطَاهُ اللهُ بِهَا إِحْدَى ثَلَاثٍ: إِمَّا أَنْ تُعَجَّلَ لَهُ دَعْوَتُهُ، وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَهَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ، وَإِمَّا أَنْ يُصْرِفَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا . قَالُوا: إِذًا نُكْثِرُ . قَالَ: اللهُ أَكْثَرُ» رواه أحمد(١).

وفي الحديث دليل على الاجتهاد في الدعاء والحرص عليه والإكثار منه لأن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أرشد إلى ذلك.

وقد قال عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «إني لا أحمل هم الإجابة، ولكن همّ الدعاء، فإذا الهمتم الدعاء، فإن الإجابة معه».

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فمَن أُلهم الدعاء فقد أُريد به الإجابة؛ فإن الله سبحانه يقول: ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾(٢)، وقال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾(٣) (٤)».

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «واسترح إلى مناجاتهِ، وتلذَّذ بعبادتهِ، فإنه يروى عن أبي سليمان الداراني أنه دخل على أحمد بن أبي الحواري وهو يبكي، فقال: ما يبكيك؟ فقال: يا أحمد، وما لي لا أبكي! ولو رأيت قُوَّامَ الليل وقد قاموا

(١) برقم (١١١٣٣) وإسناده جيد.
(٢) [سورة غافر: آية ٦٠].
(٣) [سورة البقرة: آية ١٨٦].
(٤) «الجواب الكافي» ص (١٧).

إلى محاريبهم، وانتصبوا على أقدامهم يناجون ربَّهم في فكاك رقابهم، وقطرت دموعهم على أقدامهم، وجرت على خدودهم، وقد أشرف عليهم الجليل فنادى: يا جبريل، بعيني مَنْ تلذَّذَ بكلامي واستراح إلى مناجاتي، فلمَ لا تنادي فيهم يا جبريل: ما هذا الجزعُ الذي أراه فيكم؟ أبَلَغكم أن حبيبًا يُعذِّب أحبَّاءه ؟ أم كيف يَجْمُلُ بي أن أُبيِّتَ أقوامًا وعند البياتِ آخذهم وقوفًا لي يتملقوني ؟ فبعزَّتي لأجعلنَّ جزاءهم وقد وردوا عليَّ أن أكشف لهم الحجاب عن وجهي حتى أنظر إليهم وينظروا إلي».

التعليق:

من أعظم النعيم في الدنيا التلذذ بالطاعة والعبادة والانشراح والأُنس بمناجاة الله جل في علاه.

قال شيخ الإسلام بن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإن اللَّذة والفرحة والسرور وطيب الوقت والنعيم الذي لا يمكن التعبير عنه، إنما هو في معرفة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وتوحيده والإيمان به، وانفتاح الحقائق الإيمانية والمعارف القرآنية، كما قال بعض الشيوخ: لقد كنتُ في حال أقول فيها: إن كان أهل الجنة في هذه الحال إنهم لفي عيش طيّب، وقال آخر: لتمر على القلب أوقات يرقص فيها طربًا، وليس في الدنيا نعيم يشبه نعيم الآخرة إلا نعيم الإيمان والمعرفة»[(١)].

وقال شيخنا ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الإيمان له حلاوة وليست حلاوة حسية يذوقها بلسانه، ولكنها حلاوة معنوية يذوقها بقلبه، وهو التَّلذذ بالإيمان، وانشراح الصدر بالإسلام والطمأنينة، وما أشبه ذلك مما يكاد الإنسان يعجز عن تصويره،

(١) «مجموع الفتاوي» (٢٨/ ٣١).

لأن هذا من الأمور المعنوية القلبية التي لا يمكن أن تصوِّرها، حتى إن الإنسان في بعض الأحيان يجد حلاوة الإيمان، وبعض الأحيان تضعف هذه الحلاوة بحسب ما يكون في القلب من التعلُّق بالله عَزَّوَجَلَّ والاتصال به»[(١)].

وأحمد بن أبي الحواري: هو أحمد بن عبدالله بن ميمون بن العباس أبو الحسن بن أبي الحواري الدمشقي، ريحانة الشام، ثقة زاهد، له كلام كثير في علوم المحبة والمعاملات وغيرها، مات سنة (٢٤٦هـ)[(٢)].

والأثر أورده المؤلف في كتابة «الرقة والبكاء» ص (٥٢) بإسناده، وفيه أن أحمد بن أبي الحواري دخل على أبي سليمان الداراني وهو يبكي فذكره. عكس ما ساقه المؤلف هنا.

وهذا الذي ذكره يحتاج إلى دليل، ولم يثبت فيه شيء، وقد ورد في أدلة صحيحة من الكتاب والسنة في فضل قيام الليل والخشوع والتذلل ما يغني عنه.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومنها ما روي عن منصور بن عمار أنه قال: سمعتُ عابداً بالليل يناجي ربَّه وهو يقول: وعزَّتك وجلالك ما أردتُ بمعصيتي مخالفتك، ولا التعرُّض لغضبك، ولا أنا بنكالك جاهل، ولا لعذابك متعرِّض، ولا بنظرك مستخِف، ولكن زينتْ لي نفسي، وأعانتها شقوتي، وغرَّني سترك المُرخى عليَّ؛ فعصيتُك بجهلي، وخالفتك بجهدي، فالآن مِنْ عذابك مَنْ ينقذني؟ وبحبل مَنْ أعتصم إن قطعتَ حبلك عني؟

(١) «التعليق على صحيح البخاري» (١/ ٧٥).
(٢) «تهذيب الكمال» (١/ ٣٦٩)، «التقريب» ص (٩٣).

واسوءتاه من الوقوف بين يديك غداً إذا قيل للمُخفِّين: جوزوا، وللمثقَلين: حُطّوا،

أفمع المخفين أجوزُ أم مع المثقلين أحطُّ يا سيدي؟

ويلي! كلما طالت أيامي كثرتْ آثامي.

ويلي! كلما كبرت سني عظمت مصيبتي.

فمن كم أتوب؟ وفي كم أعود ؟

واشباباه! واشباباه !»[1]

وروي عن رجل قال: طلعتُ بعضَ جبالِ الشام، فإذا في رأسه عابدٌ قد اشتدَّ بكاؤه ونحيبُه، فسمتُه يقول: أترى بكائي نافعًا لي عندك يا سيدي ومنقذاً لرقبتي من سخطك ؟

أتراك مُقيلي عثرتي في نارك ومعذبَ كَبْرَتي بعذابك؟

أتراك موبِّخي على رؤوس الخلائق بتفريطي في حقك؟

أوَّاه لكشفِ ستري !

أوَّاه لحياء وجهي!

أوَّاه لما يُلقى غداً في النار جسدي.

قال: ثم اشتدَّ بكاؤه حتى أنساني ما قبل ذلك!

---

(١) اورده المؤلف في كتابه «الرقة والبكاء» ص (٣٨).

وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٩/ ٣٢٨)، وابن الجوزي في «صفة الصفوة» (٤/ ١٨٤)، ومنصور بن عمار هو السلمي الخراساني، له اليد الطولى في الوعظ والتذكير، ويتميز بالزهد والخشية. مات سنة (٢٠٠ هـ). «سير أعلام النبلاء» (٩/ ٩٣)، «حلية الاولياء» (٩/ ٣٢٥) .

فناداه رجلٌ: دُلَّنا على الطريق رحمك الله.

فبكى ثم قال: وكيف لي ولكم بالثبوت عليها؟ وكيف لي ولكم بالاستقامة عليها؟

ثم قال: اللهم دُلَّ حيرتهم وحيرتي، ولا تُعَثِّرني ولا إياهم.

وروي عن الحسن بن جعفر، عن أبيه قال:

صليتُ العيد في الجَبَّانة، ثم انفردتُ في ناحية، فإذا بعجوز رافعة يديها وهي تقول: انصرف الناسُ ولم أشعر قلبي اليأس يا صاحب الصدقة!

ها أنا ذِهِ منصرفةٌ، فليت شعري ما زوَّدتني!

رب ارحم ضعفي وكِبَر سني.

خرجتُ أرجوك فلا تخيِّب حسنَ ظني.

وهي تبكي. قال: فما انتفعتُ بشيٍ في يومي !

وعن سفيان أنه قال: سمعتُ أعرابيًا بعرفةَ يقول: إلهي، من أحقُّ بالزَّللِ والتقصير مني وقد خلقتني ضعيفًا؟

ومن أحقُّ بالعفو عني منك وعلمُكَ بي سابق وأمرك بي محيط!

إلهي، لم أُحْسِنْ حتى أذْنتَ لي، ولم أُسِيءْ حتى قضيتَ علي.

أطعتُك بنعمتك والمنَّةُ لك، وعصيتُك بعلمك والحجَّةُ لك!

فأسألك بوجوب حجَّتك وانقطاع حجَّتي، وفقري إليك وغناك عني؛ إلا ما غفرتَ لي ورحمتني.

إلهي، أنت أُنْسُ المؤنسين لأوليائك، وأقربهم بالكفاية إلى من توكَّل عليك، تشاهدهم في سرائرهم، وتطَّلع على ضمائرهم!

اللهم وسرِّي لك مكشوف، وأنا إليك ملهوف، فإذا أوحشتني الذنوبُ آنسني ذكرُك، وإذا أصمت عليَّ الهمومُ لجأتُ إليك، علمًا مني بأن أزمَّتَها بيديك، ومصدرها عن قضائك وقدرك.

ولبعضهم:

اللهم إن استغفاري لك مع إصراري لَلُؤم، وإن تركي الاستغفارَ مع سعةِ رحمتك لَعجز.

كم تتحبَّبُ إليَّ بالنعيم وأنت غني عني، وكم أتبغَّضُ إليك بالمعاصي وأنا إليك فقير ؟!

إلهي، أتراك تعذبنا بالنار وقد أسكنتَ توحيدكَ في قلوبنا؟ وما أُراك تفعل، ولئن فعلتَ فلمع قومٍ طالما عاديناهم فيك.»

التعليق:

هذه القصص الأربع التي ساقها المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تدل على تضّرع وخضوع واعتراف بالذنب والتقصير، والثناء على الله عَزَّوَجَلَّ بما هو أهله، من بعض السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ. وهي تذكر للاستئناس بها.

وما ورد في قصة الحسن بن جعفر عن أبيه أوردها ابن الجوزي في«صفة الصفوة»(٢/ ٢٥٩). وكذا ما ورد عن سفيان الثوري أوردها ابن الجوزي أيضًا في «صفة الصفوة» (٢/ ٥١٣).

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأحسنُ من هذا ما رُوي عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال حين رجع من الطائف وقد كذبته ثقيف وردُّوا عليه فقال: «اللّهُمّ إلَيْك أَشْكُو ضَعْفَ قُوّتِي، وَقِلّةَ حِيلَتِي، وَهَوَانِي عَلَى النّاسِ. اللهم أَنْتَ رَبُّ الْمُسْتَضْعَفِينَ وَأَنْتَ أرحم الراحمين. أنت ربي. إلَى مَنْ تَكِلُنِي ؟ إلَى بَعِيدٍ يَتَجَهّمُنِي ؟ أَمْ إلَى عَدُوّ مَلّكْتَهُ أَمْرِي ؟ إنْ لَمْ يَكُنْ بِك غَضَبٌ عَلَيّ فَلَا أُبَالِي، وَلَكِنّ عَافِيَتَك هِيَ أَوْسَعُ لِي . أَعُوذُ بوَجْهِك الكريم الذي أضاءت لَهُ الظّلُمَاتُ، وَصَلُحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدّنْيَا وَالْآخِرَةِ أَنْ يحل بِي سَخْطُكَ، أَوْ ينزل عَلَيّ غضبك. لَك الْعُتْبَى حَتّى تَرْضَى، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوّةَ إلّا بِك».

التعليق:

هذا الحديث أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٨١)، وعنه الضياء في «المختارة» (١٢٨)، وابن عدي في «الكامل» (٢/ ٢٨٤) من طريق وهب بن جرير، عن أبيه، عن محمد بن إسحاق، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عبدالله بن جعفر فذكره.

وإسناده ضعيف، محمد بن اسحاق مدلس وقد عنعن.

قال الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولم يسق إسناده في السيرة، وإنما قال: «فلما اطمأن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال - فيما ذكر لي -: اللهم إليك أشكو «السلسلة الضعيفة» (٢٩٣٣)

وقال أيضاً: «فإنه ضعيف على شهرته في كتب السيرة»

«تمام المِنة» ص (٤).

قلت: ويغني عنه ما ثبت في «الصحيحين» عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أنها قالت

لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «هلْ أَتى عَلَيْكَ يَوْمٌ كانَ أَشَدَّ مِن يومِ أُحُدٍ؟ قالَ: لقَدْ لَقِيتُ مِن قَوْمِكِ ما لَقِيتُ وَكانَ أَشَدَّ ما لَقِيتُ منهمْ يومَ العَقَبَةِ، إذْ عَرَضْتُ نَفْسِي علَى ابْنِ عبدِ يَالِيلَ بنِ عبدِ كُلَالٍ فَلَمْ يُجِبْنِي إلى ما أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ علَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إلَّا وأنا بقَرْنِ الثَّعَالِبِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فإذَا أَنَا بسَحَابَةٍ قدْ أَظَلَّتْنِي فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فَنَادَانِي فَقالَ: إنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ قدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَما رُدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إلَيْكَ مَلَكَ الجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بما شِئْتَ فيهم، قالَ: ثم نَادَانِي مَلَكُ الجِبَالِ وَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قالَ: يا مُحَمَّدُ، إنَّ اللهَ قدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَأَنَا مَلَكُ الجِبَالِ، قَدْ بَعَثَنِي رَبُّكَ إلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بأَمْرِكَ، فَما شِئْتَ، إنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عليهمُ الأَخْشَبَيْنِ، فَقالَ رَسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِن أَصلَابِهِمْ مَن يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لا يُشْرِكُ به شيئًا»(١).

التعليق:

في هذا الحديث دليل على أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يُؤذى أشد الأذى، ومع ذلك يعفو ويصفح ويتأنى ويترجى، فبلَّغه الله - ولله الحمد - مراده وحصل له النصر المبين المؤزر.

وهكذا ينبغي للإنسان أن يصبر على الأذى، لا سيما إذا أُوذي في الله فإنه يصبر ويحتسب وينتظر الفرج»(٢).

قال المؤلف: «وإذا كانت لك حاجةٌ إلى الله تعالى تريد طلبها منه؛ فتوضَّأ، وأحسن الوضوء، واركع ركعتين، واثْنِ على الله عَزَّوَجَلَّ، وصل على النبي

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٢٣١)، ومسلم (١٧٩٥).

(٢) «شرح رياض الصالحين» لشيخنا ابن عثيمين (٣/ ٦٠٥).

صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم قل: «لا إله إلا الله الحليمُ الكريم، [سبحان الله ربّ العرشِ العظيم]، الحمد لله ربّ العالمين.

اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مُوجِبَاتِ رَحْمَتِكَ، وَعَزَائِمَ مَغْفِرَتِكَ، وَالْغَنِيمَةَ مِنْ كُلِّ بِرٍّ، وَالسَّلامَةَ مِنْ كُلِّ إِثْمٍ، اللهم لا تَدَعَ لِي ذَنْبًا إِلا غَفَرْتَهُ، وَلا هَمًّا إِلا فَرَّجْتَهُ، وَلا حَاجَةً هِيَ لَكَ رِضًا إِلا قَضَيْتَهَا يا أرحم الراحمين».

التعليق:

حديث صلاة الحاجة.

أخرجه الترمذي (٤٧٩)، وابن ماجه (١٣٨٤) من طريق عبد الله بن بكر، عن فائد بن عبدالرحمن، عن عبدالله بن أبي أوفى قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «من كانت له إلى الله حاجة أو إلى أحدٍ من بني آدم فليتوضأ ... ثم ذكره».

وإسناده ضعيف جداً، فائد بن عبدالرحمن قال الإمام أحمد: «متروك الحديث»، وقال البخاري: «منكر الحديث»، وقال أبو داود: «ليس بشيء» وقال ابن حجر: «متروك اتهموه»[(١)].

وقال الترمذي: «هذا حديث غريب، وفي إسناده مقال، فائد بن عبدالرحمن يضعَّف في الحديث».

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «و .....[(٢)]: «اللهم إني أسألك وأتوجَّه إليك بنبينا محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نبي الرحمة، يا محمد إني أتوجَّه بك إلى ربي وربِّك عَزَّوَجَلَّ

(١) «تهذيب الكمال» (٢٣/ ١٣٨)، «التقريب» ص (٧٧٩).

(٢) نبه المحقق أن فيه سقطاً لم يظهر.

فيقضي لي حاجتي». وذكر حاجته.

التعليق:

جمع المؤلف بين هذه الصلاة وصلاة الحاجة.

وهي في الحقيقة صلاة أخرى غير صلاة الحاجة تسمى عند أهل العلم بـ«حديث الضرير».

أخرجه الترمذي (٣٥٧٨)، وابن ماجه (١٣٨٥)، وأحمد (١٧٢٤٠) من طريق شعبة، عن أبي جعفر، عن عمارة بن خزيمة بن ثابت، عن عثمان بن حنيف أن رجلاً ضرير البصر أتى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: ادع الله أن يعافيني قال: «إن شئت دعوت، وإن شئت صبرت فهو خيرٌ لك»، قال: فادعه، قال: فأمره أن يتوضأ فيُحسن وضوءه ويدعو بهذا الدعاء: «اللهم إني أسألك وأتوجَّه إليك بنبينا محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نبي الرحمة، إني توجَّهت بك إلى ربي في حاجتي هذه لتقضى لي، اللهم فشفِّعه في» وإسناده جيد، ورواته ثقات.

قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، من حديث أبي جعفر وهو الخطمي».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذا الحديث ذكره العلماء في معجزات النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ودعائه المستجاب، وما أظهر الله ببركة دعائه من الخوارق والإبراء من العاهات، فإنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ببركة دعائه لهذا الأعمى أعاد الله عليه بصره.

ثم أطال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان أن هذا الحديث لا حجة فيه على التوسل بذات النبي

صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو جاهه لا في حياته ولا بعد مماته .. [١].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وروي أن السلف كانوا يستنجحون حوائجهم بركعتين يصليهما ثم يقول: اللهم بك أستفتح وبك أستنجح، وإليك بنبيك محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أتوجَّه. اللهم ذَلِّلْ لي صعوبة أمري، وسهِّلْ لي حُزونته، وسهِّلْ لي من الخير أكثر مما أرجو، واصرف عني من الشرِّ أكثر مما أخاف».

التعليق:

ما ذكره عن السلف أنهم كانوا يفزعون إلى الصلاة له أصلٌ في الكتاب والسنة.

قال الله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [٢]، قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإن الصلاة من أكبر العون على الثبات في الأمر» [٣] وروي أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان إذا حزبه أمرٌ صلى [٤].

وأما الدعاء فإنه لا يصح. ولم يثبت عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيه شيء.

والخلاصة أن الفزع إلى الصلاة والاستعانة بها في قضاء الحاجات وتفريج الكربات مندوبٌ إليه شرعًا، لأن الصلاة من أعظم الطاعات وفيها مناجاة رب الأرض والسماوات.

---

(١) «قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة» ص (١٨٥).

(٢) [سورة البقرة: آية ٤٥].

(٣) «تفسيره» (١/ ٣٨١).

(٤) أخرجه أحمد (٢٣٢٩٩) وإسناده ضعيف.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وإذا أردت أمراً فاستخر فيه الله تعالى، وصلِّ ركعتين من غير الفريضة، ثم قل: «اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علاّم الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري – أو قال: عاجل أمري وآجلهِ – فاقْدُرْهُ لي ويسِّره لي ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شَرٌّ لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري – أو قال: في عاجل أمري وآجله – فاصْرفْهُ عني واصرفني عنه، واقْدُرْ لي الخير حيث كان، ثم رَضِّني به».

وتسمي حاجتك

التعليق:

هذا الحديث هو في صلاة الاستخارة، وقد أخرجه البخاري في «صحيحه» في ثلاثة مواضع:

في التهجد – باب ما جاء في التطوع مثنى مثنى (١١٦٢).

وفي الدعوات – باب الدعاء عند الاستخارة (٦٣٨٢).

وفي التوحيد – باب قول الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ﴾[1] (٧٣٩٠).

■ وفي الاستخارة مباحث:

* **المبحث الأول:** الاستخارة لغة: طلب الخير في الشيء، يقال: استخر الله يخر لك.

(١) [سورة الأنعام: آية ٦٥].

واصطلاحًا: طلب خير الأمرين لمن احتاج إلى أحدهما من الله جَلَّ جَلَالُهُ.

* **المبحث الثاني:** أن السنة في الاستخارة كونها ركعتين لقوله: «وصل ركعتين من غير الفريضة».

وظاهره أنه لا يقال دعاء الاستخارة عقِب نافلة لم ينوها للاستخارة، قال شيخنا ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولا يقال دعاء الاستخارة إذا صلى تحية المسجد أو الراتبة ولم ينوه من قبل، لأن الحديث صريح بطلب الركعتين من أجل الاستخارة، فإذا صلاهما بغير هذه النية لم يحصل الامتثال، وأما إذا نوى الاستخارة قبل التحية والراتبة ثم دعا بدعاء الاستخارة فظاهر الحديث أن ذلك يجزئه، لقوله: «فليركع ركعتين من غير الفريضة»، فإنه لم يستثني سوى الفريضة، ويحتمل أن لا يجزئه، لأن قوله: «إذا هم فليركع» يدل على أنه لا سبب لهاتين الركعتين سوى الاستخارة، والأولى عندي أن يركع ركعتين مستقلتين، لأن هذا الاحتمال قائم، وتخصيص الفريضة بالاستثناء قد يكون المراد به أن يتطوع بركعتين، فكأنه قال: فليتطوع بركعتين، والله أعلم».[(١)]

* **المبحث الثالث:** لم يرد في الحديث تعيين ما يُقرأ به في هاتين الركعتين.

واستحب النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يقرأ في الأولى بعد الفاتحة ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾[(٢)]، وفي الثانية ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾[(٣)] [(٤)].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٤/ ٣٢٢).

(٢) [سورة الكافرون: آية ١].

(٣) [سورة الإخلاص: آية ١].

(٤) «الأذكار» ص (١٨٠).

قال الحافظ العراقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما ذكره النووي مناسب، لأنهما سورتا الإخلاص، تناسب الإتيان بهما في صلاة المراد منها إخلاص الرغبة، وصدق التفويض، وإظهار العجز»(١).

واستحب بعض السلف أن يزيد على القراءة بعد الفاتحة في الركعة الأولى بقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾(٢).

وفي الركعة الثانية بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾(٣) (٤).

قال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والأكمل أن يقرأ في كل منهما السورة والآية الأوليين في الأولى، والأخريين في الثانية» أ.هـ

فكأنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ رأى الجمع بين القولين، لأنه مناسب وإن لم يرد.

والأمر في هذا واسع، ولم يرد فيه شيء عنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

* **المبحث الرابع:** ظاهر الحديث يدل على صلاة هاتين الركعتين حتى في أوقات النهي، لا سيما إذا كان الأمر المستخار له يفوت، أو لا يمكن تأجيله إلى خروج وقت النهي، وأصحاب المذاهب على منعها في أوقات النهي(٥).

---

(١) «الفتوحات الربانية» (٣/ ٣٥٤).
(٢) [سورة القصص: الآيات ٦٨ - ٧٠]
(٣) [سورة الأحزاب: آية ٣٦].
(٤) «تفسير القرطبي» (١٣/ ٣٠٧)، «الموسوعة الفقهية» (٣/ ٢٤٥).
(٥) «الموسوعة الفقهية» (٣/ ٢٤٤).

* **المبحث الخامس:** ظاهر الحديث أن الدعاء يكون عقب صلاة الركعتين، وهو قول جمهور العلماء.

قال القرطبي: «ثم يدعو بهذا الدعاء بعد السلام»(١).

* ويستحب أن يستقبل القبلة حال دعاء الاستخارة، وأن يرفع يديه، ويراعي جميع آداب الدعاء.

وهل يفتتح الدعاء بالحمد والثناء على الله والصلاة والسلام على رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أولا؟

استحب بعض العلماء ذلك . قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ويستحب افتتاح الدعاء المذكور، وختمه بالحمد لله والصلاة والتسليم على رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»(٢).

قلت: والأقرب – والله أعلم – الاقتصار على ما ورد في الحديث بالبداءة بدعاء الاستخارة مباشرة بدون زيادة.

* ويستحب أن يكرِّر الدعاء ثلاثًا، لأن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان إذا دعا دعا ثلاثًا.

* **المبحث السادس:** الحكمة من مشروعية الاستخارة: التسليم لأمر الله، والخروج من الحول والطول، والالتجاء إليه سبحانه، للجمع بين خيري الدنيا والآخرة، ويحتاج في هذا إلى قرع باب الملك، ولا شيء أنجح لذلك من الصلاة والدعاء، لما فيهما من تعظيم الله، والثناء عليه، والافتقار إليه، وقد كان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا حزبه أمرٌ فزع إلى الصلاة،

(١) «تفسير القرطبي» (١٣/ ٣٠٧)، «نيل الأوطار» (٣/ ٣١٦).

(٢) «الأذكار» ص (١٧٩).

لما فيها من التعلُّق بالله وسؤاله ودعائه وخوفه ورجائه»[١].

* **المبحث السابع:** علامة القبول هو انشراح الصدر والطمأنينة والسرور لما استُخير له، فإن لم يظهر له شيء فقد قال العلماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: «له أن يعيد الاستخارة مرة ثانية وثالثة وهكذا، وأوصلها بعضهم إلى سبع مرات»[٢] .. وقد روي فيه حديث لكنه لا يصح.

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ينبغي أن يفعل بعد الاستخارة ما ينشرح له، فلا ينبغي أن يعتمد على انشراح كان له فيه هوى قبل الاستخارة، بل ينبغي للمستخير ترك اختياره رأساً، وإلا فلا يكون مستخيراً لله بل يكون مستخيراً لهواه، وقد يكون غير صادق في طلب الخيرة، وفي التبري من العلم والقدرة وإثباتهما لله تعالى، فإذا صدق في ذلك تبرأ من الحول والقوة ومن اختيار نفسه»[٣] .

* **المبحث الثامن:** عموم الحديث يشمل الرجال والنساء في مشروعية الاستخارة، فالمرأة كالرجل إذا همَّت بالأمر فإنها تستخير الله تعالى.

فإن كانت معذورة بترك الصلاة كما لو كانت حائضاً أو نفساء واحتاجت الاستخارة فإنها تستقبل القبلة وترفع يديها وتدعو بهذا الدعاء من غير صلاة، لاسيما إذا تقدم لها خاطب فإنها تستخير الله فيه.

وقد ثبت في «صحيح مسلم» في قصة زواج زينب بنت جحش برسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من حديث أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «لَمَّا انْقَضَتْ عِدَّةُ زَيْنَبَ،

---

(١) «الموسوعة الفقهية» (٣/ ٢٤٢).

(٢) «فتح الباري» (١١/ ١٨٧).

(٣) «نيل الأوطار» (٣/ ٣١٧).

قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِزَيْدٍ: فَاذْكُرْهَا عَلَيَّ، قَالَ: فَانْطَلَقَ زَيْدٌ حَتَّى أَتَاهَا وَهِيَ تُخَمِّرُ عَجِينَهَا، قَالَ: فَلَمَّا رَأَيْتُهَا عَظُمَتْ فِي صَدْرِي، حَتَّى مَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَنْظُرَ إِلَيْهَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَكَرَهَا، فَوَلَّيْتُهَا ظَهْرِي، وَنَكَصْتُ عَلَى عَقِبِي، فَقُلْتُ: يَا زَيْنَبُ: أَرْسَلَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَذْكُرُكِ، قَالَتْ: مَا أَنَا بِصَانِعَةٍ شَيْئًا حَتَّى أُوَامِرَ رَبِّي، فَقَامَتْ إِلَى مَسْجِدِهَا، وَنَزَلَ الْقُرْآنُ ...»[(١)].

وبوب عليه النسائي في «سننه» فقال: «باب صلاة المرأة إذا خطبت واستخارتها ربها»[(٢)].

قال المؤلف: «وليكن هَمُّك في هذه الدنيا التقرُّبُ إلى ربِّك الكريم، وطلبُ فضله العظيم، والاجتهادُ في الدخول في أوليائه الذين يحبُّهم ويحبُّونه، ويرضى عنهم ويرضون عنه، الذين اختارهم لنفسه، وأكرمهم بولايته، وأوقفهم على بابه، وشغلهم به، وعلَّق قلوبهم بمحبَّتِهِ، وشغلَ ألسنتهم بذكره، وجوارحهم بطاعته، لا يلتفتون إلى ما سواه، من دنيا ولا غيرها».

التعليق:

هذا إرشاد مهم من المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ليكون المرء من أولياء الله.

■ فذكر:

أن يكون همك في الدنيا التقرب إلى الله عَزَّوَجَلَّ وطلب فضله العظيم، ومن كان هَمُّه كذلك شرح الله صدره وسدده ويسّر أمره.

---

(١) «صحيح مسلم» (١٤٢٨).

(٢) «سنن النسائي» (٦/ ٧٩).

«والاجتهاد في الدخول في أوليائه الذين يحبهم ويحبونه»... أولياء الله هم عباده المتقون.

قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾[1] ففي هذه الآية الكريمة يخبر تعالى عن أوليائه، وأحبائه ويذكر أعمالهم وأوصافهم وثوابهم فقال:

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فيما يستقبلونه مما أمامهم من المخاوف والأهوال و﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ على ما أسلفوا، لأنهم لم يسلِفوا إلا صالح الأعمال، وإذا كانوا لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون ثبت لهم الأمن والسعادة والخير الكثير الذي لا يعلمه إلا الله تعالى»[2].

وعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: يقول الله تعالى: «مَن عادى لي وليًّا، فقد آذنتُه بالحرب، وما تقَّرب إليَّ عبدي بشيءٍ أحبَّ إلي مما افترضتُ عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببتُه كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورِجْله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه»رواه البخاري[3].

قال شيخ الاسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فهذا أصح حديث يُروى في الأولياء، فبيّن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن من عادى وليًا لله فقد بارز الله بالمحاربة .... وهذا لأن أولياء الله هم الذين آمنوا به ووالوه، فأحبوا ما يحب وأبغضوا ما يبغض ورضوا بما رضي، وسخطوا بما يسخط، وأمروا بما يأمر، ونهوا عما ينهى، وأعطوا لمن

(١) [سورة يونس: الآيات ٦٢-٦٣].
(٢) «تفسير السعدي» (٢/ ٧٢٠).
(٣) برقم (٦٥٠٢).

يحب أن يعطى، ومنعوا من يحب أن يمنع ..»[١].

ولكي يكون الإنسان من أولياء الله يحتاج إلى أمور منها:

- مجاهدة نفسه وهواه.
- تعظيم الأمر والنهي.
- أداء الواجبات بشروطها وأركانها وواجباتها.
- البعد عن المعاصي والسيئات.
- البعد عن آفات اللسان والجوارح.

قال: «روينا عن معاذ بن جبل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه حين حضره الموتُ جعل يُغشى عليه، ثم يُفيق فيقول: اخنقني خنْقَك، فوعزَّتك وجلالك إنك لتعلم أن قلبي يحبُّك.

ثم قال: انظروا هل أصبحنا ؟

فأُتي في بعض ذلك فقيل له: نعم.

فقال: اللهم إني أعوذ بك من ليلةٍ صباحُها إلى النار.

ثم قال: مرحبًا بالموت، زائرٌ مُغِبٌّ، حبيبٌ جاء على فاقة.

اللهم إنك تعلم أني لم أكن أحبُّ البقاء في الدنيا لغرسِ الأشجار ولا لجري الأنهار، ولكن لظمأ الهواجر وقيام الليل في الشتاء، ومزاحمة العلماء بالرُّكب عند حِلَق الذّكر».

---

(١) «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» ص (٥٠ - ٥٢).

التعليق:

هذه القصة عن معاذ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

أوردها: ابن أبي الدنيا في كتاب «المحتضرين» (١٢٧)، وأحمد في «الزهد» (١٠١١)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٣٩)، وابن الجوزي في «صفة الصفوة» (١/ ١٩٠).

وعند بعضهم زيادة – بعد قوله: على فاقة –: «اللهم إني قد كنت أخافك فأنا اليوم أرجوك».

وأوردها مختصرة ابن رجب في «لطائف المعارف» ص (٥٥٩).

لقد تمثل معاذٌ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في تلك اللحظات ما ينبغي أن يكون عليه المؤمن عند قرب مفارقة الدنيا، وهو حسن الظن بالله جل في علاه، وتعظيم الرجاء به سبحانه، مع شيء من الخوف.

فها هو يقول: «اللهم إني أعوذ بك من ليلة صباحها إلى النار، ومرحبًا بالموت! زائرٌ مُغِبٌّ، وحبيبٌ جاء على فاقة .. اللهم إني كنت أخافك فأنا اليوم أرجوك.

إنها كلمات الواثق بموعود الله، لا المغترّ بعمله، وكلمات الراجي لفضل من بيده الفضل سبحانه! ولا يجرؤ على هذا الترحيب بالموت، وفي هذه اللحظات العصيبة إلا مَن حسُنت علاقته مع الله حال الرخاء!

وعليه فيقال: من حفظ الله في الرخاء فلن يتركه عَزَّوَجَلَّ في الشدة، ومن أشد الأوقات التي يحتاج فيها الإنسان للحفظ لحظات الاحتضار، وقُرب القدوم على الواحد القهار، ومفارقة هذه الدار!

ثم قال – كالمعتذر عن الفطرة المغروسة في النفوس–: «اللهم إنك تعلم أني لم أكن أحبّ الدنيا وطول البقاء فيها لجري الأنهار، ولا لغرس الأشجار، ولكن لظمأ الهواجر، وقيام ليل الشتاء، ومزاحمة العلماء بالرّكب عند حلق الذكر»

إن حب الدنيا وكراهية الموت بالقدر المعقول شيءٌ فطري لا يُنكر، بل لا يُعاب به الإنسان، كما يبين ذلك حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا المتفق عليه، عنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه، فقلت: يا نبي الله، أكراهية الموت؟ فكلنا يكره الموت؟! قال: ليس كذلك، ولكنَّ المؤمنَ إذا بُشِّر برحمةِ اللهِ ورضوانِه وجنَّتِه أحَبَّ لقاءَ اللهِ فأحَبَّ اللهُ لقاءَه وإنَّ الكافرَ إذا بُشِّر بعذابِ اللهِ وسَخطِه كرِه لقاءَ اللهِ وكرِه اللهُ لقاءَه»[1].

وهكذا كان معاذ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فهو لم يكن يُحب البقاء في الدنيا لشيء يتعلق به عامة أهل الدنيا، بل كان يحب البقاء لغرض شريف، وهو كثرة العمل الصالح الذي يزيد الإنسان من الله قربة ومحبة، ونِعْمَ الأمنية هذه، «لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لجري الأنهار، ولا لغرس الأشجار، ولكن لظمأ الهواجر وقيام الليل في الشتاء، ومزاحمة العلماء بالرُّكب عند حِلَق الذّكر»

الله أكبر! يا لها من أعمال! صيام وقيام وطلبُ علم، فلم يدع مجالاً من أصول الخير إلا ولجه !

إن هذه الأمنية لتشبه كثيراً تلك المناجاة التي بثها ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه الماتع: «صيد الخاطر» حيث يقول: «دعوتُ يوماً فقلت: اللهم بلِّغني آمالي من العلم والعمل، وأطِل عمري لأبلُغ ما أُحبّ من ذلك ، فعارضني وسواس من

(١) «صحيح البخاري» (٦٥٠٧)، و«مسلم» (٢٦٨٤).

إبليس فقال: ثمّ ماذا ؟ أليس الموت ؟ فما الذي ينفع طول الحياة ؟!

فقلت له: يا أبله: لو فهمتَ ما تحت سؤالي علمت أنّه ليس بعبث! أليس في كلّ يوم يزيد علمي ومعرفتي، فتكثر ثمار غرسي فأشكر يوم حصادي ؟ أفيسُرُّني أنّني مِتُّ منذ عشرين سنة ؟!

لا والله، لأنّي ما كنتُ أعرف الله تعالى عُشر معرفتي به اليوم!

وكلّ ذلك ثمرة الحياة التي فيها اجتنيت أدلّة الوحدانية، وارتقيت عن حضيض التقليد إلى يفاع البصيرة [١]، واطّلعت على علوم زاد بها قدري، وتجوهرت بها نفسي، ثمّ زاد غرسي لآخرتي، وقد قال الله لسيد المرسلين: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾[٢]، وفي الصحيح عنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنّه قال: «لا يَزيدُ المؤمنَ عُمرُه إلاّ خَيراً»

فيا ليتني قدرتُ على عمر نوح، فإنّ العلم كثير! وكلّما حصل منه حاصل رفع ونفع»[٣].

وهنا نتساءل: ما هي الأماني التي تجول بخواطرنا عند طلب طول الحياة؟!

اللهم اجعلنا ممن طال عمره وحسن عمله.

واجعلنا يا أكرم الأكرمين ممن فرح بقدومه عليك.

وأعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك [٤].

---

(١) اليفاع: ما علا من الأرض .. مقاييس اللغة (٦/ ١٥٧) .

(٢) [سورة طه: آية ١١٤].

(٣) «صيد الخاطر» ص (١٢٤) .

(٤) انظر: «مواعظ الصحابة» ص (١٣٧ – ١٣٩) .

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فبكى الحارث بن عميرة، فقال له: ما يبكيك ؟

قال: والله ما أبكي لقرابةٍ بيني وبينك، ولا لدنيا كنتُ أصيبُها منك، ولكن كنتُ أصيبُ منك علمًا، فأخاف أن ينقطع.

قال: فلا تبكِ، فإنه من يُرِدِ العلمَ أتاه كما أُتي إبراهيمُ خليلُ الرحمن، وليس ثمَّ يومئذ علم ولا إيمان».

التعليق:

الحارث بن عميرة: هو يزيد بن عميرة الزبيدي، ويقال: الكلبي. قال البخاري: «وقال بعضهم: الحارث بن عميرة، ولا يصح».

من كبار أصحاب معاذ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، روى عن جمع من الصحابة، ثقة، مات قبل المائة.

«تهذيب الكمال» (٣٢/ ٢١٧)، «تقريب التهذيب» ص (١٠٨٠)

إنها موعظة بليغة أيضًا عنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

بكى لأنه سينقطع عن العلم، عن تحصيله ونشره.

لكن قيل له: من يُرِدِ العلمَ أتاه كما أُتي إبراهيمُ.. وليس ثمَّ يومئذ علم ولا إيمان.

والذي أُوتيه إبراهيم هو اليقين.

قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عنه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾[1].

(١) [سورة البقرة: ٢٦٠].

أراد عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أن يصل إلى درجة عين اليقين فأراه الله عَزَّوَجَلَّ كيف يحيي الموتى.

والمعنى أن من أوتي اليقين وهو الطمأنينة في القلب فقد أوتي خيراً كثيراً.

وكما يؤتى العبد اليقين بدرجاته الثلاث التي ذكرها أهل العلم، وهي: علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين فإنه يؤتى العلم.

فاللهم أنفعنا بما علمتنا وزدنا علماً ينفعنا ويرفعنا يا رب العالمين.

📖 **قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «واعلم رحمك الله، أن هذه الدنيا سوقُ متجرِ الأبرار، وحَلَبةُ السباق بين الكرام الأخيار، ومزدرعُ التقوى ليوم القرار، ومحلُّ تحصيل الزاد للسفر الذي ليس كالأسفار.**

فبادر رحمك الله قبل فوات إمكانِ البِدار، واغتنم أنفاسك العظيمة المقدار. واذْرِ من دموعك على ما سلف من تفريطك، فإن القطرة من الدموع من خشية الله تعالى تطفئ البحورَ من النار».

التعليق:

صدق رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

فإن الدنيا مزرعة الآخرة فينبغي اغتنامها وانتهاز جميع الأوقات بما يقرب إلى الله تعالى وإلى دار كرامته.

روي عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال لرجل وهو يعظه: «اغتنمْ خمسًا قبل خمس: شبابَك قبل هرمكَ، وصحتَك قبل سَقمِكَ، وغناكَ قبل فقرِك، وفراغَك

قبل شغلِك، وحياتَكَ قبل موتِكَ»[١].

اغتنام هذه الخمس وهي:

وقت الشباب والنشاط قبل الهرم، ووقت الصحة والعافية قبل الأمراض والأسقام، ووقت الغنى والكفاية قبل العدم والفقر، ووقت الفراغ قبل الانشغال، وفيه قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «نعمتان مغبون فيهما كثيرٌ من الناس: الصحة والفراغ»[٢] ووقت الحياة قبل الموت فالحياة هي المزرعة.

وقوله: «واذْرِ من دموعك على ما سلف من تفريطك، فإن القطرة من الدموع من خشية الله تعالى تطفئ البحورَ من النار».

هذه العبارة نقلت عن فرقد السبخي وخالد بن معدان رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ، رواه عنهما ابن أبي الدنيا في «الرقة والبكاء»[٣].

والبكاء من خشية الله ورد فيه قول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «سبعه يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ... وذكر منهم: ورجلٌ ذكر الله خالياً ففاضت عيناه» متفق عليه[٤].

وبوب عليه البخاري في صحيحه في أحد المواضع «باب البكاء من خشية الله»[٥].

---

(١) رواه الحاكم (٧٨٤٦) وصححه.

(٢) رواه البخاري (٦٤١٢).

(٣) برقم (١١)، (١٥).

(٤) «صحيح البخاري» (٦٦٠)، و«مسلم» (١٠٢١).

(٥) مع حديث (٦٤٧٩).

«فهذا رجلٌ يخشى الله في سره ويراقبه في خلوته، وأفضل الأعمال خشية الله في السر والعلانية، وخشية الله في السر إنما تصدر عن قوة إيمان ومجاهدة للنفس والهوى، فإن الهوى يدعو في الخلوة إلى المعاصي، ولهذا قيل: إن مِن أعزِّ الأشياء الورع في الخلوة، وذكر الله يشمل ذكر عظمته وبطشه وانتقامه وعقابه، والبكاء الناشيء عن هذا هو بكاء الخوف.

ويشمل ذكر جماله وكماله وبرِه ولطفه وكرامته لأوليائه بأنواع البر والألطاف لاسيما برؤيته في الجنة ... ويدخل في هذا أيضاً رجلٌ ذكر أن الله معه حيثما كان، فتذكرّ معيته وقربه واطلاعه عليه حيث كان يبكي حياءً منه وهو من نوع الخوف أيضاً».[(١)]

وهذه سِيَر الأنبياء والصالحين كأن خوف الله عَزَّوَجَلَّ أشرب قلوبهم واستولى عليهم الوجل حتى كأنهم عاينوا الحساب[(٢)].

📖 **قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وتيقَّظْ في ساعات الأسحار عند نزول الجبار، وأَحْضِرْ بقلبك قول العزيز الغفار: «هل من سائلٍ فأعطيه؟ هل من داعٍ فأستجيب له؟ هل من مستغفرٍ فأغفرَ له ؟»**

التعليق:

هذا الحديث حديث عظيم، وهو من أعظم المرغبات في قيام الليل والاستغفار بالأسحار.

قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ينزل ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ كل ليلة إلى السماء الدنيا حين

(١) «فتح الباري» لابن رجب (٦/ ٥٠).

(٢) انظر جملة من أقوالهم في «شرح صحيح البخاري» لابن بطال (١٠/ ١٨٧).

يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له ..» متفق عليه[١].

فالمؤلف يوصيك أن تتيقظ في تلك الساعات وتستحضر بقلبك قول الله عَزَّوَجَلَّ.

وهذا يحتاج منك إلى مجاهدة وفعل الأسباب التي تعينك على الاستيقاظ آخر الليل.

ومن أهمها: البعد عن المعاصي والسيئات . فمن طهَّر ظاهرة وباطنه أعانه الله ووفقه لمناجاته والوقوف بين يديه.

ومنها: البعد عن أكل الحرام، وهو من أعظم موانع القيام في تلك اللحظات.

ومنها: سلامة القلب من الحقد والغل على المسلمين.

ومنها: التقليل من الأكل في الليل قدر المستطاع.

ومنها: عدم السهر إلى ساعة متأخرة في الليل.

فإن ذلك يمنع من القيام وربما منع من صلاة الفريضة صلاة الفجر.

ومنها: استحضار النية للقيام والاستغفار عند النوم، وسؤال الله سبحانه ذلك.

ومتى علم الله من العبد صدق نيته وجهده واجتهاده وفقه وأعانه.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«قل: نعم يا رب! أنا السائل المحتاج.

---

(١) «صحيح البخاري» (١١٤٥)، و«مسلم» (٧٥٨).

أنا الفقير الضعيف.

أنا الكسير الذليل.

أنا الداعي الراجي.

أنا المستغفر المذنب.

أنا المقرُّ المعترف.

يا صاحب الصدقة ها أنذا! ارحم ضعفي، وكِبرَ سني.

ارحم فقري وفاقتي وحاجتي ومسكنتي.

يا كثير الخير، يا دائم المعروف، لا تخيِّبْ حُسْنَ ظني بك، ولا تحرمني سعةَ معروفك، ولا تطردني عن بابك، ولا تُخرجني من أحبابك.

أسألك من فضلك العظيم، فإنك قلت وقولك الحق: ﴿ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾[1].

إلهي! ما أمرتني أسألك إلا وأنت تريد أن تعطيني!

ولا دللتني عليك إلا وأنت تريد أن تهديني!

ولا أمرتني بدعائك إلا وأنت تريد أن تجيبني!

أسألك من فضلك أن تجعلني من الذين أنعمتَ عليهم من النبيين والصديقينَ والشهداءِ والصالحين.

وأن تجعلني من الذين تحبُّهم ويحبُّونك ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾[2].

---

(١) [سورة النساء: آية ٣٢].

(٢) [سورة المائدة: آية ٥٤].

ومن الأئمةِ الذين يهتدون بأمرك.

وارزقنا فعلَ الخيرات، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة.

واجعلنا من العابدين لك، ومن الذين يسارعون في الخيرات، ويدعونَكَ رغبًا ورهبًا.

واجعلنا لك من الخاشعين، ومن الذين يطيعونك، ويطيعون رسولك، ويخشونك ويتقونك. واجعلنا من الفائزين.

﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾[1].

﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾[2].

ربِّ أنت أصلحتَ الصالحين، وفضَّلتَ الصدِّيقين، وسبَّقتَ السابقين، وهديت المهتدين، وقربَّتَ المقرَّبين. تفضَّلت عليهم، ثم ثبتَّهم، ومنحتهم، ثم مدحتهم.

ولولاك ما وصلوا إليك، ولولا إحسانك ما فازوا لديك.

فأسألك بوجهك الكريم، ومَنّكَ القديم، وفضلك العظيم، أن تتفضَّل علينا بما تفضَّلتَ به عليهم، وتُصلحنا بما أصلحتهم، وتمنحنا كما منحتَهم، وتعطينا كما أعطيتهم، وتجود علينا بما جُدْتَ به عليهم.

يا رب!

---

(١) [سورة النمل: آية ١٩].

(٢) [سورة الأحقاف: آية ١٥].

دعوتنا إلى دارك دارِ السلام، فاهدنا إلى الصراط المستقيم لنجيب دعوتك، فإننا لا نستطيع إجابتك إلا بهدايتك، ولا نصل إلى دعوتك إلا بعنايتك.

إلهي!

عممتَ بدعوتك، وخصصتَ من شئت بهدايتك، فاجعلنا من خاصَّتك، ومُنَّ علينا بالتوفيق لإجابتك، وأدخلنا في أهل ولايتك.

يا رب!

أمرتنا بما لا نقدرُ على فعله إلا بك، ونهيتنا عمّا لا نقدرُ على تركه إلا بتوفيقك، ورغَّبتنا فيما لا ننالُه إلا بفضلك، وحذَّرتنا عمّا لا نَسْلَمُ منه إلا بجودك وكرمك.

اللهم فوفّقنا لامتثال أمرك واجتناب زجرك، وأعطنا ما رغَّبتنا فيه، وجنِّبْنا ما حذَّرتنا منه.

اللهم إنك سألتنا من أنفسنا ما لا نَقْدِرُ عليه إلا بك، اللهم فخذ لنا منها ما ترضى به عنا.

اللهم إنك أخذتَ بقلوبنا ونواصينا فلم تُملكنا شيئًا منها، فإذا فعلتَ ذلك بهما فكن أنت وليَّهما. واهدنا إلى سواء السبيل».

التعليق:

هذه ابتهالات ودعوات، فلو دعا الإنسان بها أو ببعضها فحسن، أو دعا بما يفتح الله عليه ويسأل ربه حاجته فلا بأس.

والأفضل أن يجعل مع دعائه الدعاء بما ورد من الأدعية المأثورة في الكتاب والسنة، فهي أدعية جامعة وقد اشتملت على معانٍ جليلة.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال أبو عبد الله النِّباجي: سمعت بالنِّباج صوتًا بالليل حزينًا قلقًا ينادي: يا حبيبَ من يُحبَّبُ إليه، ويا قرَّةَ عين من لاذ به وانقطع إليه. يا سيدي ومولاي، أغلقتِ الملوكُ أبوابها، ووقفت عليها حُجَّابها، وخلا كلُّ حبيبٍ بحبيبه، وقلوبُ العارفين تأبى إلا حُبَّك والأُنسَ بك، وإني قد جئتُكَ في هذه الليلة من غير إدلالٍ بعمل، ولا استحقاق لموهبة، وإني أسألك أن تتفضَّل عليَّ ولا تحرمني في هذه الليلة طيبَ مناجاتك، وجزيل العطية من جزيل مجازاتك.

فسألتُ عن ذلك، فأُخبرتُ أنها سلامةُ السوداء، تعبدُ الله على التجريد.

التعليق:

أبو عبد الله النِّباجي هو: سَعِيْدُ بنُ بُرَيْدٍ الصُّوفِيُّ وصفه الذهبي بـ«القدوة العابد الرباني» وقال: «لَهُ كَلاَمٌ شَرِيْفٌ، وَمَوَاعِظُ»، وله ترجمة مطولة في «الحلية» (٩/ ٣١٠) وقد تحرّف اسمه فيها إلى سعيد بن يزيد الساجي.

وانظر: «سير أعلام النبلاء» (٩/ ٨٥٦).

والنباج: اسم منزل بالبصرة .

والتجريد: يعني التوحيد والإخلاص.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وعن إسماعيل بن أبي خالد قال:

كان عندنا باليمن فتى مسرفٌ على نفسه، قليلُ الطاعة، وكان ذا جمال ومال، كان اسمُه سهلاً. فرأى ليلة في منامه كأنَّ جارية أتته وعليها ثوبٌ من لؤلؤ تتثنى أطرافه، وبيدها كتاب من حرير أخضر مكتوب فيه بالذهب، فأتته به فقالت: يا

أخي اقرأ لي هذا الكتاب.

فدفعتُهُ إليه، فإذا فيه مكتوب:

أَسَهلُ مَنْ صاغها الرحمنُ في غرفٍ ... من مِسْكةٍ عُجنت من ماءِ تشرينِ
إلى الذي حبُّه في القلب محتبسٌ ... وقلبُه عنه في لهو وتفتينِ
أسهلُ ماذا فقد أورثتني حَزَنًا ... كم عنك ما لا أحبُّ الدهرُ يأتيني
أليس تشتاقُ أنْ تلهو على فُرُش ... موضونةٍ مع حورِ خُردٍ عِيْن

قال: فانتبه من نومه فزعًا مذعوراً، وترك ما كان عليه من البطالة، ولزمَ العبادة وتنسَّك أحسن نُسك، حتى مات على ذلك، رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى».

التعلق:

في هذه القصة من العبر أن الله عَزَّوَجَلَّ قد يهيئ للعبد من الأسباب ما يكون فيه نجاته، وهذا من تمام رحمته سبحانه وبحمده ولطفه بعبده.

والأسباب تختلف، فقد تكون رؤيا: يرى في منامه ما يحجزه عن الوقوع في الزلل، أو يدفعه إلى فعل الخير والحرص عليه، كما في هذه القصة.

أو رؤيا تُرى له، أو صحبة صالحة يلازمونه يدلونه على الخير ويحذرونه من الشر.

أو دعاء الوالدين، أو غيرهما من عباد الله الصالحين.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وعن الحسن بن علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال:

رأيتُ أبي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وقد جُنَّ عليه الليلُ بسواده، قابضًا على لحيته بيمينه، يبكي بعبرته ويندب بزفرته وهو يقول:

إلهي، وسيدي، وخالقي، ورازقي، ومحييَّ، وممتني، وباعثي، ووارثي، ما أنا؟ وما قَدْري، وما خطري عندك حتى تقصد قصدي بعقوبتك، وتنحو نحوي بسخطك؟ تريدُ عذابي؟! فوعزَّتك وجلالك ومجدك وإحسانك ما تزيدُ في ملكك حسناتي، ولا تُشينه سيئاتي، ولا ينقصُ خزائنَك غناي، ولا يزيدُ فيها فقري.

اللهم ثَبِّتْ رجاءك في قلبي حتى لا أرجو أحداً سواك، يا من تحبَّبَ إلينا بآلائه، وتعرَّف إلينا بنعمائه، وكان لي في الأمور عند مسرَّتي، ارحم اليوم عبرتي.

وكان بُهيم العجلي يقول في سجوده في آخر الليل عند فراغه من تَهجُّده:

إلهي! مسكينُك يحبُّ الاتصال بطاعتك، فأعِنْهُ على ذلك بتوفيقك أيها الكريم.

إلهي! مسكينُك كثيرُ الرجاء لخيرك، فلا تحرمه ذلك.

إلهي! مسكينُك قُطع على أعرابية بطريق منى فقالت: يا ربّ، أخذتَ وأعطيتَ، وأنعمتَ وسلبتَ، وكلُّ ذلك عدلٌ وفضل.

والذي عظم على الخلائق أمرك لا بسطتُ لساني بمسألةِ غيرِك، ولا بذلتُ رغبتي إلا إليك.

يا قرَّة عينِ السائلين، أعنّي بجودٍ منك أتبحبحُ في فراديس نعمه، واتقلَّبُ في راووق[1] نصرته. احملني من الرحلة، واغْنِني من العَيْلة، وأسبلْ عليَّ سترك الذي لا تَخْرُقه الرماح، ولا تُزيله الرياح، إنك سميع الدعاء».

التعليق:

بُهيم العجلي، يكنى أبا بكر، عرف بالزهد والورع وكثرة البكاء والحزن. «صفة الصفوة» (٢/ ١٠٣).

(١) قال المحقق: الراووق: المصفاة.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقيل: كان الجُنيد ليلة العيد في البريَّة، فلما كان وقت السَّحَر، إذا هو بشاب ملتف في عباءة وهو يبكي ويقول:

بحرمةِ غربتي كم ذا الصدودُ ... أَلاَ تعطفْ عليَّ أَلا تَجودُ
سرورُ العيدِ قد عمَّ النواحي ... وحزني في ازديادٍ ما يَبيدُ
فإن كنتُ اقترفتُ خِلالَ سوءٍ ... فعذري في الهوى أن لا أعودُ

قال الحسن بن محمد بن إسحاق: رأيتُ يحيى بن معاذ الرازي في يوم عيدٍ يناجي ربَّه وهو يقول:

إلهي، لم أكن لحقّك راعيًا، لم أكن لغيرك داعيًا.

إلهي، لم أكن إلى الخيرات مسارعًا، لم أكن لباب البيعة قارعًا.

إلهي، إن لم أكن عن الغِيْبة صامتًا، لم أكن لأنبيائك وأصفيائك شامتًا.

إلهي، من بابك لا أزول، لأني بغيرك لا أقول.

إلهي، من بابك لا أبرح، لأني بغيرك لا أفرح.

إلهي، عملي كسراب، وقلبي من التقوى خراب، وذنوبي أكثر من التراب، وأنت أولى بالعفو والصفح، فاغفر لنا وارحمنا بجودك وطَوْلك يا ذا الجلال والإكرام».

التعليق:

يحيى بن معاذ الرازي هو: أبو زكريا يحيى بن معاذ بن جعفر الرازي، نزل الري، ثم انتقل إلى نيسابور فسكنها وبها مات، وكان زاهداً عابداً، سمع من إسحاق بن إبراهيم الرازي وآخرين.

من أقواله: «يا ابن آدم لا يزال دينك متمزقًا ما دام قلبك بحب الدنيا متعلقًا»، «صفة الصفوة» (٢/ ٢٩٤).

وقوله: «وطولِك» الطول هو: الغنى والفضل والجود.

وفي هذه الابتهالات اعتراف بالذنب وتقصير في حق الرب سبحانه وبحمده.

❊❊❊

آخر الوصية

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«دعا رجل فقال: اللهم إنك تعلم على إساءتي وظلمي وإسرافي أني لم أجعل لك ولداً، ولا ندّاً، ولا صاحبةً، ولا كفواً. فإن تعذِّب فبعدلك، وإن تعفُ فإنك أنت العزيز الحكيم. يا من لا يشغله سمع عن سمع».

التعليق:

هذا الدعاء أيضـًا فيه تضّرع وإقرار بالحق واعتراف بالذنب.

والخلاصة.

أنه ينبغي للإنسان أن يظهر ضعفه وفقره وذله وخضوعه لربه سبحانه حال دعائه.

ويدعو بما يفتح الله عليه من مناجاة.

ويحرص على أن يجعل من دعائه ما ورد من الأدعية، وأن يستحضر تعبُّده لله بدعائه.

❋❋❋

آخرها

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

الحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

ختم المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه الوصية المباركة بحمد الله سبحانه والصلاة على رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما ابتدأها به فجزاه الله خيراً ورفع منزلته ورحمه رحمةً واسعة، وأنزل على قبره الضياء والنور والفسحة والسرور.

ونفع بوصيته هذه وجعلها في موازين حسناته، إنه جوادٌ كريم برٌ رحيم.

والله الموفق

والحمد لله وحده.

❊❊❊

فهرس الفوائد

- ثواب دعاء الأخ لأخيه ٩
- أمنية الموتى في قبورهم ١٨
- الأسباب التي تعين على حفظ الوقت ٢٠-٢١
- فوائد التفكر ٢٩
- أقسام مبطلات الأعمال ٣٥
- آثار العجب السيئة ٤٠
- فوائد استحضار العبد معية الله ٥٣
- تعريف التوبة وشروطها ٦٠
- فوائد حسن الخلق ٧٠
- مباحث صلاة الاستخارة ١٠٢-١٠٧
- متى يكون المرء من أولياء الله ١٠٨
- من أعظم المرغبات في قيام الليل والاستغفار بالأسحار ١١٦

❊❊❊

التصميم الداخلي للكتاب
Tharwat Sultan
للتواصل :
00201019530152
TharwatSultan@yahoo.com